

نیکوس کزفتزاکیس

تصوف

(منقذو الآلهة)



ترجمہ: سید احمد علی دلاور
hawia.net

مقدمة المترجم

أدين بالشكر لكل من صوفيا كاوورا وخريستو اسكوبورا زميلي الدراسة والحياة في اثينا فلهما يرجع الفضل في ولوجي عالم كزنتزاكيس اللغوي الرحب .
داهمتني فكرة ترجمة «تصوف» عام ١٩٨٢ وهو العام الذي احتفل فيه اليونانيون بمرور قرن على ميلاد نيكوس كزنتزاكيس ورابع قرن على وفاته .
لذلك فان ترجمة هذا الكتاب للعربية تدخل ضمن ذلك الاطار الاحتفالي .واستطيع ان اقول ، في حدود علمي ، ان هذه الترجمة هي الاولى لكزنتزاكيس التي تتم من اليونانية الى العربية مباشرة ، اذ ان التراجم السابقة لاعماله مرت عبر الانجليزية ، وربما لم تتأثر اعماله التي ترجمت سابقا الى العربية خصوصا وانها روايات ، إلا ان طابع هذا الكتاب : «تصوف» نفسه هو الذي يفرض ضرورة ترجمته من اليونانية مباشرة ، لأنه نص فلسفي - شعري ، يجسد رؤيا كزنتزاكيس الاساسية التي عبر عنها في ما بعد من خلال اعماله الروائية .

نيكوس كزنتزاكيس معروف لدى قارئ العربية برواياته «زوربا اليوناني» و«المسيح يصلب من جديد» و«الاخوة الاعداء» وسيرته الذاتية «تقرير الى انجريكو» ، لكن أعماله تفوق الثلاثين عملاً أدبياً تتوزع بين الرواية وادب الرحلات والسيرة الذاتية والترجمة والتاريخ والنقد الادبيين .
ولد نيكوس كزنتزاكيس في جزيرة كريت عام ١٨٨٢ وتلقى تعليمه في

جامعة اثينا ثم باريس على يد البروفسور برجسون . طاف كزنتزاكيس في بلدان اوروبية كثيرة ، لكنه عاد واستقر في جزيرة « إيجنه » إبان الحرب العالمية الثانية منقطعا للتأليف الادبي والفلسفي .

كتاب « تصوف » الذي يعود تخطيطه الاولي الى العام ١٩١٤ ، ربما مثل الرؤيا الأساسية لكزنتزاكيس الشاعر والمفكر معا . حينها كان كزنتزاكيس في الثلاثين من عمره ، وكان في زيارة للجبل المقدس « آيوس أوروس » بشمال اليونان يرافقه صديقه الشاعر سكيليانوس ، حيث امضيا ثلاثة اشهر كاملة متجولين بين أوديته . عموما كان لهذه التجربة أثرها المستقبلي على اعمال الكتّابيين . أما الصياغة النهائية للكتاب فتمت في العاصمة الالمانية برلين ما بين كانون الاول / ديسمبر عام ١٩٢٢ ونيسان / ابريل ١٩٢٣ ، نكن الكتاب لم ير النور إلا في عام ١٩٢٧ .

إحدى السمات الاساسية للتأليف عند كزنتزاكيس هي كتابة المخطط الأوني للتجربة التي يروم تناولها ، ثم استعادتها بعد زمن لوضعها في صيغتها النهائية . ففي الفترة التي كان يعيد خلالها صياغة « تصوف » كان يدون المخطط الأوني لرواية عن بوذا لم يكملها إلا عام ١٩٥٦ . أما رواية « المسيح يصلب من جديد » التي كتبها عام ١٩٤٨ فهي مجرد تكثيف روائي لقصيدة بعنوان « المسيح » كان قد كتبها عام ١٩٢١ ، ورواية « زوربا اليوناني » التي كتبها ما بين ١٩٤١ - ١٩٤٣ استلهمها بعد ملاقاته اليكس زوربا الحقيقي في منطقة البلوبونيز بجنوب اليونان عام ١٩١٧ .

وكما إن المبدع يتأثر بقدر ورموز عصره . فان كزنتزاكيس نفسه لا ينكر تأثير نيتشه وبرجسون عليه ، لكنه يؤكد تأثير « اوديسياس » و « زوربا » عليه ، ويكتب سيرته الذاتية في شكل تقرير الى « الجريكو » ، ورغم انه ترجم فاوست جوته ، وجحيم دانتي ، وأهم كتابات نيتشه الى اليونانية ، كما ترجم الالياذة والاولديسا من اليونانية القديمة الى اليونانية الحديثة ، وكتب اوديساه الخاصة التي تتكون من ٣٢٢٢٢٢ بيتا والتي اعتبرها بمثابة « ملحمة القبيلة

البيضاء» ، إذ تبدأ من حيث انتهت أوديسا هوميروس ، ورغم كل هذا لا يبدو انه كان يحاول ان يكون هوميروس عصره بقدرما كان ينحو ان يكون أوديسياس جديد ، وان يتابع رحلة ملك جزيرة ايشاكي الى عوالم اخرى . ان المسيرة والطريق الصاعد لاستشراف آفاق أوسع هي ملامح الأوديسيا ، التي تتركز في رؤيا كزنتزاكيس الشاب لتقوده الى الاكتشافات الجديدة نحو الجذور والاوراق .

« تصوف » هو المخطط الاولي لمسيرة الاكتشافات الموعودة ، وهو البذرة التي نبتت في مؤلفاته الروائية والشعرية اللاحقة ، لذلك يمكن اعتبار هذا الكتاب « دليلا » يقود القارئ عبر عوالم كزنتزاكيس الروائية ، وفي الوقت نفسه يمكن النظر اليه كمحطة اساسية لقياس تطوره اللاحق .

مرحلة « تصوف » مثلت حقبة الازهاصات الكبرى لدى كزنتزاكيس ، إذ كان يجاهد اثناءها لكتابة رواية شعرية عن بوذا لم تكتمل إلا في سنوات حياته الاخيرة . وبعد أن أكمل « تصوف » في برلين غادرها الى ايطاليا قاصدا منطقة القديس فرنسيس بالذات ليكتب عنه في ما بعد كتاب « الفقير الى الله » .

رؤيا كزنتزاكيس الشاب الواردة في « تصوف » ليس لها امتداد تجريدي آخر ، فهو لم يحاول مثل هذا النوع المتناسق من الخطاب اللاهوتي ، وان توزعت مقاطع كاملة منه في اعماله اللاحقة . لقد ظل في ما بعد ملتصقا بالتجربة ، يتعلم ويعلم منها . وكما اسلفنا ان رواية « زوربا اليوناني » الذائعة الصيت استندت الى تجربة لقاء كزنتزاكيس بزوربا الحقيقي على السواحل الجنوبية لليونان حيث كان زوربا يعمل في قطع الاخشاب . وقال كزنتزاكيس عن تلك التجربة « لقد تعلمت من زوربا حب الحياة » . اما رواية « الكابتن ميخائيلي » فهي قصة حياة والد كزنتزاكيس ، بينما سجل في « الاخوة .. الاعداء » معاناته الشخصية حول الحرب الاهلية اليونانية .

كان كزنتزاكيس أمينا لرؤاه وتجاربه بقدر صمود هذه الرؤى والتجارب

أمام التساؤل . فالرجل الذي عاش في عصر عاصف اجتاحتها عدة حروب «الحربان العالميتان الأولى والثانية والحرب الأهلية اليونانية» ، وشهد احتلال الايطاليين والالمان لبلاده ، ظل أمينا في دعوته للسلام وسط ركام النصف الاول من القرن العشرين . وقد خصه مجلس السلم العالمي بجائزة السلام لعام ١٩٥٦ . ويذكر الصحافي اليوناني اسبيروس اليكسيو في مقال له نشرته صحيفه « كل يوم » بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد كزنتزاكيس ان الكاتب اليوناني كان يتراسل مع الزعيم الهندي المهاتما غاندي داعية اللاعنف .

وحين وضع الفاتيكان كتابه «الاغواء الاخير للمسيح» ضمن القائمة السوداء ، كتب لهم قائلا «ايها الآباء المقدسون لقد قدمتم لي اللعنة ، أما انا فأقدم لكم الشكر . أتمنى ان يكون ضميركم صافيا كضميري ، وان تكونوا اخلاقيين ومتدينين مثلي » .

على قبر كزنتزاكيس بهراكليون عاصمة كريت نحتت العبارات التالية : «لا أطمع في شيء... لا أخاف من شيء... أنا حر» . كان هذا شعاره الذي أخذه عن قصة هندية ، وضمه روايته «تودارابا» . وتقول القصة ان هنديا كان يقود قاربه مقاوما تيار النهر الجارف الذي يدفع القارب نحو شلال صخري ، وبعد ان استنفذ كل طاقته في مقاومة التيار ترك مجذافيه وبدأ يغني مرددا «آه... فلتكن هذه الأغنية حياتي... أنا لا أطمع في شيء... ولا أخاف من شيء... أنا حر» .

«الذي لا يساوم» عنوان كتاب هيلين كزنتزاكيس عن زوجها نيكوس . أجل لم يساوم وانما سار بقاربه الى اقصى حدود طاقة الإنسان ، وظل يكتب ويكتب حتى وهو على فراش الموت ، كما تقول هيلين في مقدمة كتابه «تقرير الى الجريكو» .

تضح هذه الترجمة الى المساهمة في التعريف بعنفوان كزنتزاكيس الشاب من خلال هذا النص الفلسفي الشعري «تصوف» الذي يعتبر بحق ملحمة نتساؤل .

كما تتوخى بعد قرن ونيف على ميلاده ، وأربعة عقود على وفاته التذكير بالروح «القلقة المتمردة» - روح كزنتزاكيس التي تخطت الحدود الضيقة للغة اليونانية وفاضت على اللغات الأخرى بأبداعها المتنوع .
تقول هيلين كزنتزاكيس عن «تصوف» : «حين اعطاني نيكوس كتاب تصوف عام ١٩٢٤ لم أدهش لدرجة الجنون ، لكنني مازلت اعتبره المفتاح الأساسي لكل اعماله» .

المترجم

تحية إلى بانديلي بريفاكي

(نيكوس كزنتزاكيس)

مدخل

نأتي من هاوية مظلمة وننتهي الى مثليتها . أما المسافة المضيئة بين الهاويتين فنسميها الحياة .

لحظة ان نولد تبدأ رحلة العودة . الانطلاق والعودة في آن . كل لحظة نموت . لهذا جاهر كثيرون إن هدف الحياة هو الموت .

ما أن نولد حتى تبدأ محاولاتنا في ان نخلق ونبتكر ، ان نجعل للمادة حياة . كل لحظة نولد . لهذا جاهر كثيرون إن هدف الحياة الدنيا هو الخلود .

في الاجسام الحية الفائية يتصارع هذان التياران :

المساعد ، نحو التركيب ، نحو الحياة ، نحو الخلود .

المهابط ، نحو التحلل ، نحو المادة ، نحو الموت .

هذان التياران ينبعان من أغوار الجوهر البدائي . الحياة تفاجي: في البدء ، تبدو

وكأنها خارجة على القانون ، كأنها طبيعة مضادة ، كأنها رد فعل على الينابيع المظلمة

الخالدة . لكننا نشعر في اعماقنا أن الحياة هي الاخرى فوضى وفوران لانهائي للمكون ،

والأفمن أين تأتي تلك القوة التي تفوق طاقة البشر ؟ تلك القوة التي تقذف بنا من

الغيب إلى الميلاد ثم تشد أزر كفاحتنا نباتات وحيوانات وبشراً .

هذان التياران كلاهما مقدس .

واجبنا إذن أن ندرك الرؤيا التي تستطيع ان تستوعب هذين الإندفاعين الهائلين

-الفوضيين واللانهائيين . وتجانسهما ، وأن نضبط بهذه الرؤيا فكرنا وسلوكنا .

الواجب الأول:

أحدق في العالم بوضوح وهدوء ثم أقول :
كل هذا الذي أراه وأسمعه وأذوقه وأشمه وألمسه هو من صنع عقلي . الشمس
تصعد وتهبط داخل مجمعتي ، من أحد صدغي تشرق وفي الأخرى تغيب .
في عقلي تلمع النجوم . الأفكار والناس والحيوانات ترعى داخل رأسي
الفاني . نحيب وأغنيات تملأ تجاوبف أذني النولبية . فيضطرب الهواء للحظة ،
ينطفئ العقل فيختفي كل شيء ... السموات والارض .
يهتف العقل « أنا وحدي الموجود » .

« في باطني تعمل الناسجات الخمس ، ينسجن ثم ينقطن نسيج الزمان
والمكان ، الفرح والحزن ، المادة والروح ، كل الاشياء تجري من حولي وكأنها
نهر ، تدور مندفة ، الوجوه تنساب كالماء وتصطبغ الفوضى ، لكني أنا العقل
أتقدم بصبر وبسالة ، هادنا وسط الدوار ، ولكي لا أتدحرج نحو الهاوية أتصق
بالدوار وأترك آثاراً . أسقط جسوراً ، وأفتح طرقاً ، وأسس للهاوية .

يبطء وبجهد شاق أتحرّك بين الظواهر التي أنجبها . أميزها بطواعية
وأخلطها بقوانين ثم أخضعها لإحتياجاتي العممية الشاقة . أضع أساساً للفوضى ،
أعطي للفوضى وجهاً هو وجهي .

لا أدري ما إذا كان ثمة جوهر خفي ومتعال يعيش ويتحرك خلف الظواهر .
ولكي لا أتساءل أعتبره لا يعينني . إنني انجب الظواهر بطواعية ، أرسم بألوان
عديدة حجاباً خيالياً أمام الهاوية . لا تقل لي أزل الحجاب لأرى اللوحة .
فالحجاب هو اللوحة نفسها .

أنا عامل الهاوية . أنا المتفرج على الهاوية . أنا النظرية والممارسة . أنا القانون . خارجي لا يوجد أي شيء على الإطلاق .

عليك أن تدرك وأن تقبل حدود العقل الإنساني بلا محاولات عصيان لاجدوى منها ، وعلينا ضمن هذه الحدود الصارمة أن نعمل بلا شكوى وبلا توقف - هذا هو واجبك الأول .

عليك أن تشيّد ببسالة وقوة ، على الفوضى المتحركة (ثقافة) * العقل شديدة الاستدارة ، وشديدة الإضاءة ، لكي تدرس وتميز كل شيء كما يدرس رب الأسرة السنايل ويفرز الحبوب من الروث .

عليك أن تميّز بوضوح ، وتتقبل بشجاعة هذه الحقائق المرة ذات الخصوبة والقيمة الإنسانية ، والتي تعتبر قطعة من لحم جسدنا ؛

- بإمكان عقل الإنسان أن يدرك الظواهر فحسب ، لكنه عاجز أبداً عن ادراك الجوهر ؛

- أنه عاجز حتى أن يعقل كل ظواهر المادة ، وإنما يستطيع فقط أن يعقل بعض ظواهرها .

- وبالتحديد أكثر : أنه لا يستطيع حتى أن يعقل ظواهر المادة وإنما فقط يستطيع أن يعقل العلاقات التي تربط بعضها ببعض .

- إن العلاقات التي تربط بين ظواهر المادة ليست مستقلة فعلاً عن الإنسان . إنما هي من صنع البشر أيضاً .

وهي ليست أقوى ما يتجلب الإنسان ، لكنها الأكثر مساعدة له في ضروراته العملية والعقلية .

ضمن هذه الحدود يظلُّ العقل هو السلطان الشرعي الوحيد . وليست ثمة سلطة أخرى عداه في ربوع مملكته .

أعترفُ بهذه الحدود ، أنصاعُ لها بصبر وشجاعة وحب . وفي المنطقة الواقعة داخل هذه الحدود أُطلقُ العنان لكفاحي وكأني حر . أطوعُ المادة .

* لثقة : قطعة رض صلبة ومستديرة يدرس عليها التمتع بعد حماده لتفرز لحبوب عن غيرها . (لمترجم)

أجبرها على أن تكون موصلاً جيداً لعقلي . أفرح بالنباتات والحيوانات والناس
ولأنه وكأنهم أبنائي . أشعر بالكون كله يتجمع من فوقني ثم يتبعني وكأنه
جسد .

في لحظات مفاجئة وعصبية يلمع في داخلي صوت يقول : « هذا كله مجرد
نعبة فاسدة لا غاية لها ، بلا بداية وبلا نهاية وبلا معنى » ، لكنني أوصل نفسي
سريعا بعجلة الضرورة ، فيبدأ الكون كله يدور دورته حولي من جديد .
عليك بالانضباط . انه الفضيلة العليا ، وبه وحده تتكافأ الرغبة بالقوة ،
وتثمر محاولة الانسان .

وبذلك تستطيع بصفاء وشدة ان تحدد السلطة المطلقة للعقل على
الظواهر ، وعجز العقل في ما وراء الظواهر ، قبل ان تتقدم للخلاص والأقلن
تجد للخلاص سبيلاً .

الواجب الثاني:

لا أقبل الحدود ولا تسعني الظواهر . إنِّي أختنق! فلتعش هذه المعاناة العميقة الشاقة . هذا هو الواجب الثاني .

انعقل يتكَيَّف . فله القدرة على الصبر ويعجبه اللهو ، لكن القلب يتوخَّش ولا يقبل لهو العقل . انه يقفز ويصطخب لكي يمزق شباك الضرورة .

ما قيمة أن أهيمن على الأرض والماء والهواء ، وان انتصر على الزمان والمكان ، وان ادرك بأيّ القوانين تتناغم وتأتي المرّة تلو الاخرى هذه الصورة المنعكسة على المرايا ، التي تصعد من صحراء العقل الملتهبة ؟

أشتاق الى شيء واحد هو : ان ادرك ما الذي يختبئ خلف الظواهر . ما هو هذا السر الذي يتجني ثم يقتلني ؟ وهل خلف التيار المنساب والمرني للعالم يختبئ حضور ثابت لامرني ؟

اذا كان العقل لا يستطيع وليس من شأنه أن يحاول التقدم خارج حدود بوابة الخروج البطونية اليانسة فهل يستطيع القلب ؟!

بعيداً... بعيداً... بعيداً في ما وراء الانسان ، أبحث عن السوط اللامرني الذي ينهال عليه ويدفعه للكفاح . وفي ما وراء الحيوانات أجهد نفسي لأرى ذلك البدائي الذي ينافح صانعاً ومهدماً ، وهو يسكب مرّة أخرى الأتقعة التي لا تحصى لتنتزع على تيار اللحم .

وفي ما وراء الحيوانات أحاول أن أُميّز آثار الخصى الأولى للامرني على الوحل الطيني .

صوت في داخلي يصيح أمراً :

احفر . ماذا ترى ؟

- بشراً وطيوراً ، مياهاً وحجارة .

احفر ايضا... ماذا ترى ؟

- افكاراً... واحلاماً... بروقاً... وخيالات .

احفر أيضا . ماذا ترى ؟

- لا أرى شيئاً؛ ثمة ليل عاصف غليظ كالموت ، لعلة الموت .

احفر ايضا!

- آه لا أستطيع ان أعبر شبه الجدار المظلم! أسمع أصواتاً ونحيباً ، أسمع

حفيف أجنحة آت من النصفه الأخرى .

لا تبتك! لا تبتك! إنها ليست من النصفه الأخرى . كل هذه الأصوات والنحيب

وحفيف الأجنحة هي قلبك .

بعيداً عن العقل ، وفي الهاوية المقدسة للقلب أتوازن مرتجفاً .

إحدى قدمي تحط على تراب حقيقي ، والأخرى تبحث عبر الظلام عن

الهاوية .

أستشعر خلفي كل هذا الجوهر المكافح يصارع من خلف الظواهر ليلتحم

بقلبي ، لكن الجسد يقف حائلاً بيننا ليفرقنا ، والعقل يقف حائلاً بيننا ليفرقنا .

ما هو واجبي ؟ واجبي ان أحطم الجسد ، أن أتدفق وألتحم باللامرني ، أن

يصمت العقل لكي أسمع صياح اللامرني .

أسير على حافة الهاوية وأرتجف . هناك صوتان في داخلي يتهدجان .

يقول العقل : «لماذا تتوه بحثاً عن المستحيل ؟ يجب ان نعرف بحدود

الانسان داخل السور المقدس للحواس الخمس » .

نكن صوتاً آخر بدخلي ولنسمه الحاسة السادسة أو لنسمه القلب يقف

معتزلاً ويصيح :

« لا ، لا ، لا تعترف أبداً بحدود الانسان! عليك ان تحطم الحدود! ان

تنكر ماتراه عينك! ان تموت وانت تردد لا يوجد موت » .

يرد العقل : «عيني صافية وخالية من كل أمل ، ترى كل شيء . ترى الحياة لعبة بل مجرد عرض يقدمه ممثلو مسرح جسدي الخمسة . أتابع العرض بمتعة وغرابة تفوق الوصف ولكنني لا أملك بساطة القروي لكي أصل الى يقين وأصعد على المسرح مشاركاً في الكوميديا الدامية . أنا الحاوي صانع المعجزات الذي يجلس ساكناً عند تقاطع طرق الحواس ، يرى العالم يولد ثم يغيب . يرى الجموع تتحرك وتصيح في دروب اللاجدوى المتعددة الألوان

«أيها القلب... أيها القلب الفج... اهدأ وانصع» .

لكن القلب ينتفض ويصرخ :

«أنا القروي أقفز على المسرح وأتدخل في مسيرة العالم!» .

لا أزن ولا أقيس ولا أتكيف . أتبع دقائق العميقة . أسأل وأكرر السؤال طارقاً أبواب الهاوية : من الذي يبذرنا في هذه الارض دون إذن يطلب منا ؟ من الذي يقتلعنا من هذه الارض دون إذن منا ؟

أنا مخلوق مؤقت وضعيف . مصنوع من طين وأحلام لكنني أدرك ان في داخلي تصطبخ كل قوى الكون .

أريد للحظة واحدة ، وقبل ان تحطمني هذه القوى ، ان أفتح عيني فأراها أمامي . هذا هو هدفي الوحيد في الحياة .

أريد ان أجد مبرراً لكي أستمع على قيد الحياة ، ولكي أتحمّل المشهد اليومي المرعب للمرض والقبح وظلم والموت .

بدأت من نقطة مظلمة هي الرحم ، وأسير نحو نقطة مظلمة أخرى هي القبر . إحدى القوتين تقذفني من هاوية مظلمة والأخرى تسحقني ، بلا انقطاع ، في هاوية مظلمة .

أنا لست ذلك المذنب الذي سقوه النبيذ لكي لا يتلوث عقله ، فانا أقفز على الممر الواقع بين الهاويتين السحيقيتين بذهن صاف ومنتيقظ .

أكافح لكي اكون قادراً على هز رأسي للرفاق محيياً قبل ان أموت ، وأن

أمد يدي لهم مصافحا ، ولتنحل عقدة لساني فأنتقي عليهم قولاً بليغاً أحدثهم فيه
عن تصوري لهذه المسيرة وعن تكهناتي بالاتجاه الذي تسير فيه ، وعن مدى
حاجتنا جميعاً لضبط ايقاع خطواتنا وقلوبنا على بعضها البعض .
كيف أتوصل الى شعار ، الى كلمة سر متفق عليها كما يفعل المقدمون
على تنفيذ مؤامرة ؟ كيف أتوصل الى قول بسيط أقدّمه للرفاق ؟
أجل... ان هدف هذه الارض ليست الحياة وليس الانسان . فلقد عاشت
بدونهما وستعيش لاحقاً بدونهما . انهما الشرارات المؤقتة لدورانها العنيف .
فلنتحد ونتماسك بقوة ، ولتلتحم قلوبنا ونبدع . وبقدر ما ستستمر هذه
الارض محتفظة بحرارتها ، سنكون في مأمن من مفاجآت الزلازل والبراكين
والتلوج والشهب . فلنبدع عقلاً وقلبا على هذه الارض ، ولنعط معنىً إنسانياً
لكفاح التسامي لما بعد الانساني . هذه المعاناة هي واجبك الثاني .

الواجب الثالث:

العقل يتكئف يود لو يعبئ سجنه ،عرشه بانجازات عظيمة ، وان ينقش على الجدران مآثر بطوليّة ، ويرسم على السلاسل أجنحة الحرية .
القلب لا يتكئف . ثمة أياد تطرق أبواب سجنه من الخارج ، وأصوات عشق تتسرب الى مسامعه عبر الريح ، فيستجيب القلب وهو مغمم بالأمل ، مفجرا السلاسل ، وفي احدى توهجاته تبدو له السلاسل وقد تحوّلت الى أجنحة . لكن سرعان ما يسقط القلب مرة اخرى دامياً . وقد فقد الامل وبدأ يتملكه الخوف الكبير .

طوبى لتلك اللحظة...

أترك وراءك القلب والعقل وتقدم الى أمام وأخط الخطوة الثالثة .
عليك أن تنجو من البساطة الفجة للعقل الذي ينظّم ويأمل في السيطرة على الظواهر .

عليك ان تنجو من رعب القلب الذي يبتغي ويأمل العتور على الجوهر .
انتصر على العقبة الأخيرة الأكثر اغراء : الأمل . هذا هو واجبك الثالث .
نحن نحارب لأننا نستمتع بذلك . نغني حتى إذا لم نجد أذنا تصفي لغنائنا . نعمل حتى إذا لم نجد رب عمل يدفع لنا أجرنا اليومي عند الأصيل . نحن لانعمل للغير ، إذ نحن أرباب العمل . ان كروم هذه الأرض ملك لنا . انها لحمنا ودمنا . نحن الذين نحفر لها التربة ، ونشذب فروعها ونجني عنبها ونعصره ، ونشرب النبيذ . ولغني ونبكي ، وتصعد الى رؤوسنا أفكار وأحلام .

في أيّ موسم دورة حقل الكروم اختار لك الحظ ان تعمل ؟ في موسم
نحفر أم في موسم جني العنب أم في موسم الاحتفالات ؟ انها جميعا شيء
وحد .

أحفرُ وأبتهجُ بكل دورة . أغني رغم عطشي وإرهاقي منتشياً بنبيذ
مستقبل .

أحمل الزجاجة المليئة وأعيش ثانية الجهد الذي لحق بجديّ وبجذّه من
قبه ، وعرق العمل يتصبّب منساباً على الجمجمة السكري .
أنا سلّة مليئة باللحم والعظام والدم والدموع والعرق ، بالرغبات والرؤى .
أعدو للحظة في الريح ، أنتفس ، يخفق قلبي ، يضيء عقلي ، وفجأة تنفتح
الأرض وأصبع .

داخل سلسلتي الفقرية الفانية يصعد ويهبط تياران ، وفي احشائي رجل
وامرأة يتعانقان . يتحابان ويتباغضان . يكافحان .

يصيح الرجل متهيجاً « أنا المردار انذي يوّد ان يمزّق النسيج ، وان يقفز
خارج منسج الضرورة . انا الذي يريد ان يتجاوز القانون وأن يحطم الأجساد
وان ينتصر على الموت . أنا البذرة » .

يرد صوت آخر منطقي وعميق ، صوت أنثوي هادئ وواثق : « اجلس
واضعه احدى قدمي على الاخرى ، وأدع جذوري تذهب عميقاً في القبور . أتقبّل
البذرة وانا ساكنة بلا حراك ثم أرهاها . أنا كلّي حليب وضرورة .

أتشوّق للرجوع الى الورا . للهبوط اني الحيوان ، والهبوط أكثر وأكثر الى
الشجرة ، والى اعماق القبور والتربة ، والأأتحرك الى الامام . اني اقبض على
الانفاس وأحبسها ولا أدعها تنطلق . أكره الشعلة التي تتصاعد . أنا الرحم » .

أصيح السمع للصوتين فكلاهما لي . أفرح بهما ولا أرفض أيّاً منهما .
قلبي رقصة للحواس الخمس . قلبي رقص مضاد نقيض للحواس الخمس .
قوى لا تحصى . مرئية وخفية ، تفرح وتتبعني حين أتقدم صاعداً بمشقة
عكس التيار العظيم .

قوى لاتحصى ، مرتبة وخفية ، تهدأ وتسكن حينما أترجع الى الوراء ،
هابطاً عاتداً الى التراب .

ينهمر قلبي . لا أطلب بداية العالم ولا نهايته . أتبع إيقاع قلبي الرهيب
وأذهب .

ألق التحية على الاشياء كلها في كل لحظة . أرسل نَظْرَكَ بتؤدة ووله ثم
قل : الوداع .

حدِّق في ما حوئك : كل هذه الاجساد التي تراها ستتحلّل . لا يوجد
خلاص .

أنظر : يعيشون . يعملون . يحبون ، يأملون .

انظر مرة اخرى : لا يوجد أي شيء!

أجيال من البشر تصعد من التراب ثم تسقط ثانية في التراب .

تتجمع فضيلة الانسان ومحاولته ، تكبر وتتصاعد حتى السماء .

الى اين نحن ذاهبون ؟ لا تسل! أصعد وأهبط . لا توجد بداية ولا توجد

نهاية

توجد هذه اللحظة الحاضرة . مليئة بالمرارة ومليئة باللذة .

أفرح بها كاملة .

الحياة خير والموت خير ، والارض مستديرة كصدر أنثوي في قبضتي

التقديرتين .

أمنح نفسي كل شيء ، أحب ، أتألم ، أكافح . عالمي يمتد لأبعد مما

يتخيل العقل .

قلبي سر عميق وغامض .

أيتها النفس . نو تستصيعين ، أصعدي على الامواج الصاخبة واحتوي البحر

كله بنظرة من عينيك . سيضري على قُوى إدراكك حتى لاتتزعزع وغوصي مرة

أخرى في عمق البحر وواصلني الكفاح .

جسدنا سفينة تسبح في مياه عميقة زرقاء .

ما هو هدفنا : ان نتحطم سفينتنا!

لأن المحيط الاطلسي مليء بالشلالات ، فإن الأرض الجديدة توجد فقط في قلب الانسان . وذات لحظة مفاجئة ستغرق أنت وسفينة العالم ، في إحدى لدومات الصاخبة بشلال الموت .

واجبك ان تبهر بهدوء وشجاعة ، وبدون أمل نحو الهاوية ، وأن تقول : لا

يوجد أي شيء! لا يوجد أي شيء! لا توجد حياة ولا يوجد موت!!

أحدق في المادة والعقل وهما يتحركان ، وهما يلتحمان ، وهما

يتناسلان ، وهما يغيبان كأنهما أطراف من العشق لا وجود حقيقياً لهما ثم أقول : هذا ما أريده .

أعرف الآن أنني لا أطمع في شيء ولا أخاف من شيء . لقد تخلصت من

العقل ومن القلب وصعدت الى أعلى . أنا حر . هذا ما أبتغيه ولا أبتغي شيئاً عداه فلقد كنت أطلب الحرية .

المسيرة:

تفاجئني صيحةً قويةً تأتي من داخلي ؛ « النجدة »
من الذي يصيح ؟

أجمع قواك وارهدف السمع . قلب الانسان ليس إلا مجرد صيحة . التصق
بصدرك لكي تسمعها . شخص ما يكافح بداخلك هو الذي يصيح .

ان واجبك في كل لحظة ، ليلاً ونهاراً ، في الفرح وفي الحزن ، وفي خضم
مشاغل الحياة اليومية ، هو ان تميّز هذه الصيحة ، متهدجة كانت أم
متماسكة ، كيفما صدرت عنك ، سواء كنت مبتهجاً أم باكياً ، فاعلاماً أم
مفكراً . وأن تكافح لكي تحس بهذا الذي يصيح وهو يواجه الخطر ونجد
أنفسنا لتحريره .

في اقصى حالات فرحنا نسمع بداخلنا أحداً يصيح : « إني أتألم ، أريد أن
أفر من فرحك . انني أتميّز من الغيظ » .

في اقصى حالات يأسنا نسمع بداخلنا أحداً يصيح : « لست يائساً . أني
أكافح . أقبع فوق رأسك . أطلُّ من جسدك ، أنبثق من الارض ، لا تسعني
العقول ولا الأسماء ولا الأفعال » .

من اكثر فضائلنا أريحية ينبري أحد الناس واقفاً ثم يصيح بيأس :
« ضيقة هي الفضيلة ، اني لا أستطيع أن أتنفس . الجنة ضيقة وصغيرة ،
إنها لاتسعني . إلهكم يبدو كإنسان . أنا لا أريدها »

أسمع الصيحة المتوحشة وأنهض واقفاً ، ولأول مرة تأخذ المعاناة المساعدة
في داخلي شكلاً نصوت إنسان حقيقي... تواجهني مباشرة ثم تناديني بكل

وضوح باسمي وباسم أبي وباسم سلاتي .

هذه هي اللحظة العظيمة الحاسمة . إنها شعار المسيرة . فلا تبدأ إذا لم تسمع هذه الصرخة وهي تحترق أحشائك!
تبع مرتبتك في المقام الأول وفي المقامين الثاني والثالث من التهيؤ بصبر وضاءة .

أرهف السمع أثناء نومك وخلال ممارسة الجنس وفي الإبداع ، وخلال فعل من أفعالك الطوعية ، أو أثناء صمتك صمتاً عميقاً يانسا ، فربما تسمع فجأة هذه الصيحة وتتقدم إلى أمام .

كان قلبي يهدر حتى تلك اللحظة ، يصعد ويهبط مع الكون . لكني حين بلغتني الصيحة إنقسمت احشائي والكون الى معسكرين .

بداخلي شخص يواجه الخطر . رفع يديه صائحا يستغيثني : « أنقذني » .

بداخلي شخص يتقدم صاعداً ، يسير وهو يصيح : « النجدة! »

أي من الطريقين المقدسين عليّ أن أختار؟ وفجأة أدرك أن حياتي كلها بل وحياة الكون بأكمله مرتبطة بقراري هذا .

من بين الطريقين أختار الطريق الصاعد . لماذا؟ ليس لأي حجج عقلية أو يقين ، فعند تلك اللحظة الحاسمة أستوعب كم هو غير خبير هذا العقل ، بل وكل القناعات الصغيرة للإنسان .

أختار الطريق الصاعد لأن قلبي يدفعني نحو هذا الاتجاه . يناديني قلبي : « إلى الأعلى... إلى الأعلى » فأتبعه بكل ثقة .

أشعر إن هذا ما تطالبني به تلك الصيحة البدائية الرهيبة . أقفز إلى جانبها وأضابق قدرتي بها .

بداخلي يكافح شخص ليرفع حملاً ثقيلاً ، يراجع حساب الجسد والعقل منتصراً على العادة والكسل والضرورة .

لا أدري من أين يأتي ولا إلى أين يذهب . أتبع خطاه داخل صدري الفاني . أرهف السمع إلى لهاته وأقشعر حين أتحمسه .

من هو؟ أنصب له أذني . أضع علامات . أستنشق الهواء ثم أصعد الى
أعلى . أبحث في اتجاه الاعالي . ألهث . ابدأ المسيرة السرية الرهيبه .

١) السِّلْمُ الْأَوَّلُ: أَنَا

أنا لست طيباً ، ولست نقياً ، ولست مطمئناً . السعادة لا تطاق والشقاء لا يطاق . أنا مليءٌ بهمهمات ذعر وظلام . أتدفق دموعاً ودماءً داخل زريبة حمي الساخنة هذه .

أخاف أن أتكلم . أتزين بأجحة مزيفة . أصيح وأغني وأبكي لكي لا أخنق صيحة قلبي القاسية .

أنا لست الضوء . أنا الليل ، لكن شعلة تربض ما بين أحشائي وتأكلني . أنا الليل الذي يأكله الضوء .

أخاطر يانسا مترنحا في الظلام . أحاول أن أقفز من نومي ، وإن أنتصب واقفا لبعض الوقت ، قدر ما أستطيع .

نفسٌ صغيرة ومتمرد ، يكافح في داخلي يائسا علّه ينتصر على السعادة ، وعلى الأرهاق وعلى الموت .

أمرنٌ جسدي كحصان محارب ، أحافظ عليه بسيطاً وقوياً وطبيعاً . إنني أقسو عليه وأواسيه ، إذ ليس لي حصان سواه .

أحافظ على عقلي يقظاً وصافياً وحاداً . أتيق في أن يكافح بلا انقطاع هذا النور الذي يلتهم الظلام ، إذ ليس ثمة معمل غيره يستطيع أن يحوّل الظلام إلى نور .

أحافظ على قلبي متوهجا ، شجاعا ، متوتراً . أحسُّ بكل الاضطرابات والتناقضات في قلبي ، بمباهج الحياة ومنغصاتها ، لكنني أكافح من أجل أن أطوعها لايقاع الكون الذي يتصاعد . الصيحة في داخلي تطلق نداءً للتجنيد .

تصيح : « أنا الصيحة . أنا السيد إلهك! أنا لست ملجأ ولا داراً ولا أهلاً . أنا نلت الأب ولا الإبن . أنا لست الروح . أنا قائدك! أنت لست خادما لي ولست لعبة بين كفي . أنت لست صديقي ولست إبني . أنت رفيقي في المعركة . عليك ان تحمي المضايق التي كُففتك بحمايتها ، وألا تتركها للأعداء . وواجبك الذي تستطيع ان توديه هو ان تكون بطالا في موقعك . عليك أن تحب المخاضر . « ما هو الشأن الأكثر صعوبة ؟ »... « هذا ما أطلبه منك! » أي الطرق تسنك ؟ الصاعد النوع... هذا هو طريقي أيضا فاتبعني!

تعلم ان تطيع . وحده الذي يذعن لإيقاع أعلى من إيقاعه يستطيع ان يكون حراً .

تعلم ان تصدر الأوامر . وحده الذي يستطيع ان يأمر يستحق ان يمثلني على هذه الأرض .

عليك ان تحب الواجب ، وان تقول : علي أنا وحدي تقع مسؤولية إنقاذ الأرض . وإذا لم تُنقذ فأنا المذنب .

عليك ان تحب كل شخص بمقدار مساهمته في الكفاح ، والأ تبحث عن أصدقاء وإنما عن رفاق!

عليك ان تكون متوثراً وممتعضاً وغير متكيف أبداً . وحين تمتلك إحدى العادات عليك ان تحضنها . ان أكبر الأخطاء هو الاستسلام للرضا .

إلى أين نحن ذاهبون ؟ هل سنتنصر أبداً ؟ في أي إتجاه تنحو كل هذه المعركة ؟

إلزم الصمت! فالمحاربون لا يتساءلون أبداً .

أنحني وأرهف السمع اني هذه الصيحة القتالية التي تنبعث من أحشائي . أبداً في تصور وجه القائد ، أتحمق من صوته ثم انصاع اني أوامره الشاقة بفرح ورهبة .

أجل... أجل... أنا لاشي!... أنا مجرد نعومة فسفورية على المروج المبتلة . دودة تعدة تطلق صغيراً وتحب ، تصيح وتتكلم لساعة أو لساعتين عن أجنحة ما ، وبعد

ذلت تغلق فمها بالتراب . هذه هي الاجابة الوحيدة التي تقدمها القوى المظلمة .
لكن النصيحة العظمى الخالدة بداخلي تنادي قائلة : ما الذي تريده ولا
تستطيع ان تبلغه ؟ أنا واثق بأنني جزء من الكون المرئي واللامرئي . نحن شيء
واحد... القوى التي تعمل بداخلي ، والقوى الاخرى التي تدفعني لأعيش ، والقوى
التي تدفعني لأموت ، هي بالتأكيد ، قواك أنت أيضا .
أنا لست جسداً معلقاً لا جذور له في العالم . أنا تراباً من ترابه ونفساً من
أنفاسه .

لا أخاف وحدي ، ولا أمل وحدي ، ولا أصرح وحدي . قطاع كبير وقوى
هائلة من الكون تخاف وتأمل وتصيح معي .
أنا جسر شيد بغير إتقان . أحدهم يعبرني فأتحطم وراءه . أحد المناضلين
يخترقني ، يأكل جسدي وعقلي لكي أفتح له الطريق ، ولكي ينجو مني . انه هو
الذي يصيح وليس أنا .

ب) السُّلمُ الثاني: السَّلالة

انصيحة لاتصدر عنك . لست أنت الذي يتكلم . أسلافُ بأعداد لا تحصى هم الذين ينطقون عبر فمك . أنت لا تعبّر عن رغبتك الشخصية وإنما تعبر من خلال قلبك عن رغبات أعداد لا تحصى .

ان موتاك لم يعودوا يقبعون في التراب ، وإنما صاروا طيوراً وأشجاراً وهواء . إنك تجلس بينهم وتستطعم بلحمهم ، وتستنشق أنفاسهم . لقد صاروا أفكاراً وأحاسيس وهامهم يحددون مشيئتك وسلوكك .

إن أجيال المستقبل لا تتحرك في الزمن اللأيقيني بعيداً عنك . انهم يعيشون وينشطون وتتملكهم الرغبات داخل قلبك وكليتيك .

واجبك الأول وأنت توسّع أناك في هذه اللحظة المؤقّته التي تسير فيها على الأرض ، هو أن تفلح في أن تعيش المسيرة الخالدة ، أن تحيا المرني والأمرني من ذاتك .

أنت لست فرداً . انك وحدة من جيش كامل . لحظة واحدة تحت الشمس تضيء وجهاً من وجوهك وما أن تضيأه حتى تتحول عنه لتضيء وجهاً آخر ، أكثر شباباً منه .

سالاتك هي الجسد الأكبر ، فهي الماضي والحاضر والمستقبل . أنت تعبيرٌ لحظويٌّ ، أما عشيرتك فإنها الوجه . أنت الظل وعشيرتك اللحم .

أنت لست حرّاً . جموع من الأيدي تقبض على يديك وتتحرك . حين تغضب يرغي ويزيد أحد أسلافك عبر فمك . وحين تحب يتلعثم أحد سكان الكهوف ، وعندما تخد إلى النوم تتفتح القبور ويمتلئ رأسك بأفباح الموتى .

رأسك ترعة من الدماء تتجمع على ضفافها قطعان وقطعان من ظلال
موتى ، ويشربونك لكي يحيوا .

يصيح الموتى بداخلك : « لا تمت كي لا نموت » .

« لم نتمكن من الإبتهاج بالنساء اللاتي رغبناهن ، فلتتمكن انت
وتضاجعهن . لم نتمكن من تحويل أفكارنا إلى أعمال . حولها أنت إلى أعمال .
نه نستضع القبض على ملامح وجه أمالنا نتحقق منها ، فلتتحقق أنت منها ،
وتكمل عملنا!

أكمل عملنا! ندخل جسدك ليل نهار ، ونخرج منه صانحين . نحن لم
نذهب ، لم نبارح جسدك ، ولم نهبط إلى الأرض . من داخل أحشائك نواصل
لكفاح . خلصنا!»!

لا يكفي أن تسمع في داخلك صخب الأجداد . لا يكفي أن تشعر بهم
يتدافعون أمام عتبة عقلك .

انهم جميعا يتدافعون لكي يتشبثوا بحرارة عقدك ، ولكي ييلفوا مرة أخرى
ضوء الأيام .

لكن عليك أن تحدد اياً من الأسلاف سيتحطم خلف جحيم دمائك وأيهم
سيصعد مرة أخرى ألى الضوء والتراب .

لا تحزن من أجلهم! اجلس ساهراً في الممر الأسفل لقلبك ثم اختر . قل :
« هذا الظل متواضع ومظلم كأنه حيوان ، فليذهب! وهذا صامت ومتوهج ، انه
أكثر حيوية مني ، فليشرب دمائي كلها » .

عليك ان تضيء دماء الاسلاف المظلمة . عليك أن تشكل من أصواتهم
خطابا . نظف مشيبتهم ، وسع جبهتهم الضيقة الصلبة . هذا هو واجبك الثاني .
ولأنك نست عبداً ، لذلك فخال ولادتك وئيد معك احتمال جديد ، وإندفاع
حررة تهز انظلمات العميقة لقب عشيرتك .

وسواء أردت أم لم ترد ، فأنت تحضر معك إيقاعاً جديداً ، ورغبة جديدة ،
وفكرة جديدة ، وحرناً جديداً . إنك توسع جسدك الأبوي أردت أم لم ترد .

عنيك واجباً كبير . فأنت لا تتحكم في وجودك التفضيل الصغير . أنت قطعة نرد جيشاً يُلعبُ ، ونو للحظة قدر شعيد .

كل فعل لك يتردد صداه في آلاف الاقدار . وحيثما تسير وتكتشف وتقيم ماؤك فإن نهر الأجداد سيجري وينفذ إليك .

حين تخاف فإن خوفك سيفصم عرى أجداد لا يُحصون ، ويحط من قيمة أرواح لا تحصى من قبلك ومن بعدك ، وحين تقوم بعمل شجاع فإن سلالتك بأكملها ستذهب وتستبسل .

«أنا لست فرداً واحداً... أنا لست فرداً واحداً» . يجب أن تحرقك هذه الرؤيا في كل لحظة .

أنت لست جسداً ضعيفاً ويائساً ، فحلف قناعك الترابي المتحرك يقع وجه منذ آلاف السنين . إن عواطفك وأفكارك أكثر قدماً من قلبك ومن عقلك .

جسدك المرئي هو الرجال والنساء والصبيان الذين يعيشون خصوصية عشيرتك .

أسلافك وأحفادك الذين لم يولدوا بعد هم جسدك اللامرئي .

وحده الذي يتخلص من جحيم ذاته ، هو الذي يشعر بالجوع حين يرى أحد أبناء جنسه يتضور جوعاً . ويقفز فرحاً حين يرى امرأة ورجلاً من عشيرته يتبادلان القبل .

كل هؤلاء هم أعضاء جسدك المرئي العظيم . أنك تتألم وتفرح متبعثراً حتى نهاية الأرض في آلاف الأجساد التي لها صلة قرابة بك بالدم .

كافح من أجل جسدك الأكبر كما تكافح من أجل جسدك الأصغر . كافح من أجل أن تكون كل أجسادك قوية وبسيطة وكاملة . وأن يضاء عقلها وأن ينبض قلبها متوهجاً وبأسلاً ومتوترأ .

كيف تستطيع أن تكون قوياً . ومتوهجاً ، وشجاعاً ، إذا لم تتخلل هذه الفضائل جسدك الأكبر كله ؟ كيف تستطيع أن تنجو إذا لم ينج دمك كله . إذا ضاع أحد أبناء عرقك فإنه يدفعك معه في ضياعه... أحد أعضاء جسدك يتلف .

عليك أن تعيش هذه النهاية بعمق ، ليس كفكرة مجردة وإنما كلحم ودم .
أنت صفة واحدة في شجرة عريقك الكبرى . عليك أن تشعر بالتراب وهو
يتصاعد من الجذور العميقة ثم يتوزع في الفروع والصفق .
ما هو هدفك ؟ أن تكافح لكي تقبض على الفرع بقوة . وسواء أكنت صفة
أم زهرة أم ثمرة ، يجب أن تتحرك ، وتتجدد ، وتتسفس الشجرة كلها من
خلالك .

إن واجبك وأنت تقدم خدمتك التصوُّعية لبني جنسك هو أن تشعر في
داخلك بكل الأسلاف . واجبك الثاني هو أن تضيء انطلاقتهم وأن توصل
علمهم . واجبك الثالث هو أن تنقل إلى ابنك الواجب الأكبر وهو أن يتجاوزك .
المعاناة تشتد داخلك ، شخص يكافح لكي يخرج ، ولكي ينفصل من
جسدك ولكي ينجو منك .

بذرة في كبيتك . بذرة في عقلك . تريد ان تشارك بلا عودة ، إذ لم تعد
أحشاؤك تستوعبها ، إنها تكافح في سبيل الحرية .
« يا أبت... قلبك لايسعني ، أكاد أتحطم . أريد أن أخرج . يا أبت إنني
أكره جسدك ، وأشعر بالخجل لإتصاقي بك . أريد ان أخرج !
لقد تحولت إلى حصان كسون . إن أرجلك عاجزة عن اللحاق بدقات
قلبي . إني على عجل... سأترجّل ، سأصعد على جسد آخر ، وسأتركك في
الطريق ورائي » .

لكنك أيها الأب تفرح وأنت تسمع صوت ابنك وهو يعلو فتقول « كل شيء
يأبني . كل شيء له . أنا القرد وهو الانسان . أنا الانسان وهو ابن الانسان .
قوة ما بداخلك ، قوة أعنى منك تمر ممزقة جسدك ثم تناديك :

« قامر بالراهن واليقيني . قامر به من اجل المستقبل والمجهول . لا تأخذ
معك شيئا من اجل الآتي . إني أحب الخطر . ربما تضيع ، وربما تنجو . لا
تسل . ضع انعامك كله وفي كل اللحظات بين يدي الخطر . أنا بذرة ذك الذي لم
يولد بعد ، أكل أحشاء سلاتك واصيح ! » .

ج) السلم الثالث : الانسانية

أنت لاتتكلم وحدك . ولا تتكلم سالتك وحدها من خلالك ، ففي داخلك تصطبغ وتمايح أجناس لاتحصى من البشر. بيض وصفر وسود .

تحرر من السلالة ايضا . جاهد لكي تحس بالانسان المكافح في كل مكان . أنظر كيف تميز عن الحيوان ، وكيف يكافح لينتصب واقفاً ، ولينظم الصيحات العشوائية . وليحمي الشعلة متمددة ، وليحافظ على العقل بين عظام رأسه .

فلتملك الرحمة على ذلك المخلوق الذي تنصل عن القرود ذات صباح عارياً بلا حماية . وبلا قرون وبلا اسنان ، لا يحمل سوى نار مشتعلة داخل رأسه الرخو .

انه لا يدري من أين أتى . وإلى أين سائر ، لكنه يريد عبر الحب والعمل والقتل ان يسود على الارض .

حدّق في البشر . إحزن من أجلهم . تأمل نفسك بين الناس ، واحزن من أجلها . نحن نتحس بعضنا البعض في عتمة الحياة المظلمة . نبعث ، ونسأل ، ونرهب السمع ، ثم ننادي : « النجدة! » . نعدو ، ونعرف اننا نعدو نحو الموت ، لكننا لا نتوقف . بل نواصل العدو .

نعدو ونحن نحمل معنا مصباحاً يضيء وجهنا ونحظتنا . ودون إبطاء نسلم المصباح إلى ابننا وحالاً ينطفئ نورنا ونهبط إلى العالم السفلي .

الأم تنظر إلى الآمام نحو بنتها . والبنت تنظر إلى الامام أيضا ، تنظر إلى أبعد من جسد زوجها ، إلى ابنها . أنظر كيف يسير اللامرئي على هذه الارض .

كلنا ننظر إلى أمام بلا رحمة ، مدفوعين من الخلف بقوى هائلة وغمضة لا تخفى .

قف على جسدك التراخي المؤقت وانظر وراءك صوب القرون الماضية .
ماذا ترى ؟

حيوانات كلها شعر ودماء تصعد من الطين متمردة .

حيوانات كلها شعر ودماء تهبط من قمم الجبال متمردة .

الجيوشان يلتحمان متصايحين ، كالتحام رجل بامرأة ، ثم يصيران كتلة من
الدماء... عقل وطين .

حدق... شعوب تصعد كما يصعد العشب من التراب ، ثم تسقط ثانية الى
التراب سماءاً خصباً لبذور المستقبل ، فتسمن الارض بالرماد والدماء ويعقول
البشر .

أعداداً لا تحصى من البشر يضيعون في منتصف الطريق... يولدون ثم
يموتون عاقرين . فجأة تنفتح هاويات في الضلام ، وتتحطم شعوب . وعبر زوبعة
همجية تأتي أوامر بعدم الصمود فيجفل القطيع البشري ويتبعثر .

وفجأة نحس من تحتنا ومن حولنا ودأخل هاوية قلبنا بانقوى العمياء
العديمة القلب والعقل . التي لاتشبع .

نبحر الى عرض البحر الصاخب ، فنحس بها في برق أصفر ، نودع ثروتنا
وأبناءنا وآلهتنا كالبيضة داخل قشرتها .

القرون أمواج مظلمة وسميكة ، دماء تعنو وتهبط ، وكل لحظة تأخذ شكل
هاوية تنفتح .

حدق في عرض البحر المظلم وأنت ساكن . حدق في الهاوية كل لحظة
وجهاً لوجه دون خيال أو خجل أو خوف . نكن هذا لا يكفي . عليك ان تتقدم
خطوة أخرى :

كافح من أجل ان تعطي معنى لصراعات الانسان المتصلة . مرّن قلبك كي
يسيطر قدر استطاعته على حيز اكبر من ساحة المعركة .

عُدّ القهقري لخلق على قرن واحد من مسيرة الانسان ، ثم على قرنين ،
ثم على ثلاثة ، ثم على عشرة قرون... ثم على أكثر ما تستطيع .

مرن عينيك على مشاهدة شعوب بأكمها تتحرك على حقب زمنية كبيرة .
استغرق في هذه الرؤيا بصبر وبحب ودون أدنى غرض حتى يتنفس العالم
بداخلك شيئاً فشيئاً ، وحتى يتوهج المتصارعون ويلتحموا في قلبك ، حتى
يتعارف الاخوة .

ان القلب يؤلف كل ما يقسمه العقل . انه يتجاوز ساحة الضرورة ويحوّل
النصر الى حب .

حافظ على توازنك وانت على الهاوية الجائعة ، وكافح نكي تؤسس
الرؤيا . افتح بوابة الغموض التحتيّة المتعددة الألوان ، حيث النجوم والبحار
والبشر والافكار . أعط شكلاً لما لا شكل له . للاعقلانية المطلقة .
اشحن قلبك بكل أنواع الرعب . أعد تركيب كل التفاصيل . إن دورة
الخلاص واحدة وعليك أن تكملها!

ما معنى السعادة ؟

هو أن تعيش كل أنواع التعاسة .

ما معنى الضوء ؟

أن ترى بعين غير معتمة كل الظلمات .

نحن حرف بسيط . مقصع واحد . كلمة واحدة من الأوديسا العظيمة .

نحن مستغرقون في أغنية عظيمة تلمع كما تلمع الأعشاب البحرية طوال
فترة استكانتها في الأعماق .

ما هو واجبنا ؟

أن نرفع رؤوسنا عن النص لنحظة . بقدر ما تحتل أحشاؤنا ، ونتنفس
الأغنية البعيدة عابرة المحيطات .

علينا أن نلتحم في أتون المغامرات . علينا ان نعطي لرحلتنا معنى . وأن
نكافح دون انقطاع مع البشر ، ومع الآلهة . ومع الحيوانات . وأن نمسح بصبر

وتؤدة عسى قوى إدر، كنا ، دهنأ عظمياً من دهون عظامنا . من إيثاكي .

ومثل جزيرة تصعد من العدم ، سيصعد عمل الانسان ببطء وبكثا

تسديين .

وفي هذه الحراثة الدائمة ستعمل الأجيال وستحب وستأمل وستغني .

أجيال جديدة من البشر يطأون جثث الأجداد ويواصلون العمل فوق

نهاوية ، من أجل ان يروؤصوا السر الرهيب... كيف ؟ سيقومون بذلك وهم

يزرعون حقلا ، أو يقبلون امرأة ؛ أو يتفحصون حجراً أو حيوانا أو فكرة .

تأتي زلازل فتتهز الجزيرة . يتحطم أحد أطرافها بينما يصعد طرف آخر

تحت تأثير أمواج الأعماق .

إن العقل هو أحد العمال البحريين وعليه ان يردم الهاوية .

من كل هذه الأجيال ، ومن كل هذه التعاسات والأفراح وحالات العشق

والحروب والأفكار ينبعث صوت هادئ وصافر . إنه هادئ وصافر لأنه يحتوى

على كل خطايا ومخاوف الانسان المكافح الذي يتجاوزها ويصعد .

من بين كل هذه المادة الانسانية يصعد كائن ما بالأيدي وبالأقدام مختنقا

بالدموع والدماء وهو يجاهد لكي ينجو . مم يريد النجاة ؟ يريد ان ينجو من الجسد

الذي يحيطه ، ومن الشعب الذي يتشبث به . ومن لحم الانسان وعقله وقلبه .

- ايها السيد . من أنت ؟ انك تنتصب أمامي وكأنك من قبيلة الانسان .

- الحصان البحري الاسطوري بيدين تمتدان الى السماء وقدمين مثبتتين

في الطين .

. أنا ذلك الذي يتقدم أبداً .

. لماذا تتقدم ؟ إنك تتعب وتكافح . تناضل لكي تتصل عن الانسان...

تتصل عن الانسان والحيوان . أناشذك الأ تتركني .

. أناضل وأصعد لكي لا أغرق . أبسط يدي وأتشبث بكل الأجساد

الحارة . أنتصب فوق عقلي ورأسي لكي أتنفس . في كل مكان أغرق ولامكان

يسعني .

- يهه سيند . حدد ترتجف ؟

- شعرب بخوف . فصرىق اصاعد لانهاية له . رأسي شعلة تحاول ابدأ ان
تتنصر عن جسدي . كن روح نيل تهب دائما وتطفئني .
ان كفاحي كنه يتعرض سخطر بين لحظة وأخرى . ان كفاحي كنه يتعرض
سخطر في كفة اجسدي . أخضو وأسير داخل اللحم كالمسائر في الليل وانادي :
« سجدة »

د) السلم الرابع: الأرض

أنت لاتصيح ، وسلالتك لاتنادي عبر صدرك انفاني... وأجناس البشر من
بيض وصفر وسود لايصيحون وحدهم في جوانح قلبك . ان الارض كلُّها ،
بمياها وأشجارها ، بحيواناتها وبشرها ، وبأنهتها تصيح في صدرك .
ان الارض تنهض على عقلك فتشاهد لنمرة الأولى ، جسدها
كاملا . تقشعُرُ .

إنها حيوان يأكل ويتوالد ويتحرَّك ويتذكَّر . تجوع الارض فتأكل بنيتها ؛
نباتات وحيوانات وبشراً وأفكاراً . . تطحنهم داخل فكها المظلمين ، وتمرِّهم
عبر جسدها ثم تدلقهم على التراب .
تتذكر وتستعيد ما أصابها من قبل ، وداخل قلبي تفتح ذاكرتها وتسود
على الوقت .

ليس القلب هو الذي يقفز وينبض داخل الدم ، وانما الأرض بأكملها تقفز
وتنبض ، وهي تلتفت وراءها لترى مرَّة أخرى صعودها الرهيب على الهاوية .
أتذكر صحراء كاملة من مادة فسفورية مشتعلة . أعبّر وقتاً فوضوياً لا
يحصى وحيداً يائساً وصائحاً في البرية .

شيئاً فشيئاً تتضاءل الشعنة ، يترطب رحم المادة ويحيا الحجر ، تفتتح
وتصعد مرتجفة في الهواء ورقة صغيرة خضراء . تتشبث بالتراب وتتماسك .
ترفع رأسها ويديها وتقبض بشدة على الهواء والماء والضوء وتحلب الكون .
تحلب الكون وتحاول أن تمرِّره عبر جسدها الرقيق كالخيوط لتجعله زهرة
فشمرة فبذرة ، وتجعله خالداً .

يقشع البحر وينشق الى قسمين . تصعد من قراره المكين دودة قلقة عمياء .
لقد انهزمت الوطأة ، ودفع الغطاء الحجري للموت .
الاشجار والحيوانات تتصدّر القيادة ، ممتلئة بالجنس والجوع .
أحدّق في الارض بعقلها الضمني وأقشع وأنا أواجه الخطر مرة أخرى .
كان يمكن ان اغرق ، وان اضيع في الجذور التي تشرب الطمي بسعادة .
كان يمكن ان أتضمم داخل جلد الحيوان الضخم هذا . أو أترنح الى الأبد
داخل دماغ الاسلاف القدامى المظلم والدامي .
لكنني نجوت . عبرت النباتات ذات اللحاء السميك . عبرت الاسماك
والضيور والنوحوش . وصرت إنساناً .

لقد صرت إنساناً والآن أكافح لكي أتركه خلفي!
« لا شيء يسعني . لا شيء يسعني . أريد ان أنعتق » .
هذه الصرخة ظننت لدهور طويلة تسحق وتثمر داخل أحشاء العالم . تقفز
من جسد لجسد . ومن جيل لجيل ، ومن نوع لنوع . وفي كل مرة تصير أكثر
قدرة على إتهام اللحوم . وأكثر قوة . كل الآباء يصيحون « أريد ان انجب إبناً
يتفوقني »!

في اللحظات الرهيبة التي تصر بها هذه الصرخة عبر أجسادنا نحس بقوة
تعود الى ما قبل ظهور الانسان ، لاتعرف الرحمة ، تدفعنا . نحس من خلفنا
بفيضان طينيين مليء بالدماء والدموع والعرق ، وبأصوات الفرح والنشوة
والموت .

ريح عشقية تهب على الارض . الدوائر يصيب الأحياء جميعاً فتتلاحم في
البحار والكهوف والهواء وتحت التراب . وتتناقل من جسد الى آخر نبأ عظيماً
ومبهماً .

والآن فقط ، نحن نستشعر الخطر من خلفنا ، نبدأ بغير وضوح التكهّن
بمعنى الكفاح . لماذا كانت الحيوانات تولد ثم تموت . ومن قبلها النباتات ،
ومن قبل كل هذا ، وذلك قوى الاحتياطي اللاعضوية .

موساتنا وعرفاننا بانجميل وتقديرنا لرفاقنا القدامى في معركتهم . لقد
عمرو واحبوا وماتوا لكي يفتحوا لنا الطريق لنعبر عليه .

نحن مثلهم ، داخل الشهوة نفسها ، في المهفة وفي البلبلة . نعمل لشخص
آخر سيتقدم خطوة الى الامام مع كل فعل شجاع نقوم به .
ان كفاحنا سيكون له هو الآخر أيضا ، هدف أعلى ، إذ سيأتي من بعدنا
من سيستخدم جهودنا وتعاستنا وجرائمنا ويقدمها .

ان كفاحنا قفزة ، نَمَسُّ يتطير ويصطخب ، يحول المادة الى ثمر ، يصرُ
ب-حيوانات خالقا الانسان ، ومتشبها بما فوقه كصقر خاطف مزمرجر .

لقد أتى دورنا! إنه يعمل فينا عمله . يُصنَعُ بداخلنا المادة فيحوّلها الى
روح . يطأ عقولنا ، يقفز واثقا على البذرة ويصارع ، مخلّفا جسدا وراءه لكي
ينعتق .

كان هذه الحياة مشهد مصيدة خالدة ، لزوج غير مرئي يطارد الخلود من
جسد الى جسد ، يطارد الزوجة التي لا يمكن ترويضها . ونحن ، كل المدعوين
نحضور حفل مراسم الزواج ، نباتات وحيوانات وبشر ، نقفز مرتجفين امام بيت
الزوجية ، وكل فرد منا يحمل برهبة رموز الزواج المقدسة . البعض يحمل
الذكر ، والبعض الآخر يحمل الرحم .

الرؤيا:

بدأت حين سمعتُ النصيحة ، عبرت من معركة الى أخرى بكل أنواع التدريبات عسكرية للإنسان المحارب .
حاربت داخل الخيمة الصغيرة لجسدك ، لكنها بدت لك ساحة ضيقة ، فاختنقت ثم نسكبت لكي تنعق منها .
عسكرت عند سالتك . إمتلأت أيادي وقلوباً .
صعدت مع دمك الى الاسلاف ذوي الرهبة ، وتحركت مع الموتى والاحياء ، ومع الذين لم يولدوا بعد ، لكي تحارب .
وفي إحدى المرات تحركت كل الاجناس معك . إنتظم الجيش الإنساني خلفك ، واضضخت كل الارض وكأنها معسكر .
وهكذا صعدت ، وعلى القمة الشاهقة تفرع كل مخطط المعركة الى تلافيف عقلك ، وامتزجت كل النزاعات العسكرية داخل معسكر قلبك الغامض .
وفي الخلف انتظمت الحيوانات والنباتات مثل خيوط الامدادات لجيوش الإنسان الامامية المتصارعة .
ولان ها هي الارض كلها تتشبه بك وتصير جسداً لك ، وتصيح وسط الهاوية .

كيف أحاصر هذه الرؤيا الرهيبة بالكلمات ؟

أنحني على الهاوية وأرهف السمع ، يتقدم أحدهم وهو يلهث . على الطريق الصاعد الخطير والغامض . يبذل جهده . يكافح باصرار ليصعد . لكنه يعضد بالعوائق في طريق تقدمه . أحدهم يهبط مسرعاً على ضيق سري . منحدر ومعبّد .

يختنق النَّفس بالتيار الغليظ الهابط إلى اسفل ، ويسير سيراً حلزونياً .
وفي لحظة تمتد لأكثر ما تتحملة أي حياة ، تتوازن الرغبةتان المتعاكستان .
هكذا تُولد الأجساد ، هكذا يُخلق العالم ، وتتوازن القوتان المتصارعتان
دخرا لحياء .

و ذات لحظة يلتفتُ بالواحد الذي يصعد ، جسداً محبوباً ، جسده هو ،
فيعيقه في حركة صعوده ، لكنه ينعثق سريعاً ، ينعثق بالعشق ، وبالموت ، ثم
يوصل المسيرة .

يطأ النباتات ويعطيها شكلاً ويعبؤها ، يعسكر بكامل عتاده ، ماذا يعني
بكامل عتاده ؟ « يعني انه مزودٌ بالاشواق ، وبالقوة اللتين تمكَّنه من
الانعثاق .

يحاول الوقوف على قدميه . يتنفس بجهد لكنه يشعر بالإختناق . يترك
عنى النبات ما يستطيع تركه من الثقل والتوجس والسكون ، يتخفف ويقفز
بكامل هيئته ، مرة أخرى ، أبعد وأعلى مما كان ، خالقاً الحيوانات ، ثم يعسكر
بكامل هيئته في كليتها . « بكامل هيئته » هنا تعني مرة أخرى : مزوداً بالاشواق
وقوة اللتين تمكَّنه من الانعثاق .

ان الاجساد تنفس ، تستضم قواها وتستجمعها ، وفي كل لحظة عشق
تتحطم ، تستهلك كل شيء وتستفرغ لكي تترك روحها لابنها . أي روح ؟ روح
الاندفاع الى أعلى ! تتطهر بين أجساد الحيوانات ببطء وشدة ، ثم تترك عليها
قدر ما تستطيع من المعاناة والضعف والظلام .

تنهض مرة أخرى وهي أخف مما كانت عليه ، ثم تقفز محاولة الانعثاق . ان
هذه الإندفاع نحو الحرية تخنق ببطء وعبر الجهاد مع المادة - رأس الانسان .

والآن نحس به ، ونحن مرتعبين ، يجاهد مرة أخرى لكي يتعدانا ويقذفنا
خلفه مع النباتات والحيوانات ، ليقفز بعيداً . لقد أتت اللحظة وسط مشاعر
الفرح والحرقه النهائيين . لننضم نحن أيضاً . نحن الضالعين ، الى قوى الاحتياطي
والإمدادات .

خلف تيار جسدي وعقلي . وخلف تيار سلاتي والبشر أجمعين . وخف
تيار الحيوانات والنباتات ، أرى وأنا أرتجف ذلك اللامرئي يطأ كل المرئيات
ويصعد . وتحت وطأة قدمه الثقيلة أسمع كل الاحياء وهي تتحطم .

وجهه عابس ، وجهه صامت ومظلم . بعيد عن الفرح والحزن ، بعيد عن
الأمل . أرتجف . هل انت إلهي . جسدك مليء بالذاكرة ، كمن قضى سنوات
عديدة في السجن . إنك تزيّن يديك وصدرك بأشجار غريبة ، وبوحوش
يكسوها الشعر ، وبمغامرات دامية وصرخات . أيها السيد . أيها
السيد . انك ترسل أصواتاً كالحَيوان . قدمك مضرجتان بالدماء والطين .
وفكّك الثقيلتان تهيسان كحجر الطاحون .

تمسك بالأشجار وبالحيوانات ، تطأ الانسان وتصيح ، تصعد المنحدر
اللانهازي المظلم للموت وانت ترتجف . اني اين تذهب ؟ يتزايد الانم ويتزايد
النور والظلام . تبكي . تمسك بما هو فوقني ، تستطعم دمي ، تتشجّع وتركل
قلبي ، أحملك في صدري . أخاف منك وأعطف عليك .

كأننا وارينا شخصا ما التراب بعد ان تيقنا من موته ، لكننا الآن نسمعه
وهو ينادي : النجدة! ثم يرفع حجارة القبر بمعاونة تفوق طاقة أجسادنا
وأرواحنا ، منتصباً نحو أفق أكثر علواً ، متنفساً بحريّة .

ان حجارة القبر الثقيلة التي يرفعها تشمل كل قول ، وكل فعل ، وكل
فكرة . ان جسدي وكل العالم الذي أتامله بسماه وأرضه هي الاخرى حجارة
القبر ، والإله يجاهد كي يرفعها .

تصيح الأشجار والحيوانات والنجوم : « اننا نضيع » . يدان كبيرتان
ترفعهما كل المخلوقات نحو السماء طلباً لنجدة .

يبدو الإله بركيّتين معقودتين تحت ذقنه . ويدين مبسوطتين نحو الضوء .
وقدمين ملتصقتين بظهره . وكأنه نفة خيط تتسلل اني كل أعضاء الجسد .
حين أفتح ثمرة أعرف ان البذرة تتعرى في داخلي مثلها . وحين أتحدث
مع البشر أميّر شيئاً كهذا يحدث داخل عتمة عقولهم الداكنة .

يجاهد الإله بكلّ شيء . بأيدٍ مشدودة نحو الضوء... أي ضوء ؟ خارج وفوق كل شيء .

ليس الألم وحده هو جوهر إلهنا ، ولا الأمل في حياة مستقبلية . أو في حياتنا الأرضية هذه ، ولا الفرح أو الانتصار . ان أي ديانة ترفع من قدر وجه واحد من هذه الوجوه الأساسية للإله عن طريق العبادة تضيّق من سعة قلبنا وعمقنا .

إن جوهر إلهنا هو الكفاح ، الذي ينبسط ويعمل فيه بلا انقطاع الألم والفرح والأمل .

ان عملية الصعود ، والمعركة ضد التيار المعاكس يولّدان الألم ، لكن الألم ليس سلطاناً مطلقاً ، فكل انتصار ، وكل توازن مؤقت على طريق الصعود ، يملؤنا بالفرح كل المخلوقات التي تتنفس ، وتستطعم ، وتعشق ، وتنجب .

لكن الأمل ينبعث على الدوام من أعماق الفرح والألم ، فننتقم من الألم ونوسّع رقعة الفرح ، ويبدأ الصعود الأليم من جديد ، ويولد الفرح من جديد ، ويقفز مرّة أخرى أمل جديد .

فالدورة لاتنغلق أبداً ، إذ هي ليست مجرد دورة ، وإنما دائرة حلزونية متصاعدة أبداً ، توسّع وتبسط وتطوي كفاحها الثلاثي الأبعاد ، الذي يحتوي الألم والفرح والأمل .

ماهو هدف هذا الكفاح ؟ يتساءل العقل البشري المسكين والمصلحي المسوّة تنو الأخرى ، ناسياً ان النّفس العظيم لايعمل ضمن زمان ومكان إنسانيين ، كما لا يعمل ضمن سببية إنسانية .

ان النفس العظيم أكبر من الاسئلة البشرية ، وله اندفاعات كونية هائلة يتصورها عقلنا الضئيل تناقضات ، لكنها تتآخى داخل جوهر الألوهية . وتحارب مجتمعة كرفاق سلاح أوفياء .

يتوزع النّفس الأساسي في كل الاتجاهات ، يندفع ويحارب ، يفشل وينجح ، وهو يمارس نشاطه . انه عجلة انريخ .

ما هي تلك الإندفاعات من كل إندفاعات الإله ، التي يستطيع الانسان أن يدركها ؟

إنها الإندفاعات التالية وحدها : ان نَمِيْزُ خطأً أحمر على الارض . أن نَمِيْزُ خطأً أحمر ودموياً يتصاعد من المادة الى النباتات ، ومن النباتات الى الحيوانات ، ومن الحيوانات الى البشر .

ان الإيقاع الممتد دون انقطاع ، من قبل ظهور الانسان على سطح هذه الارض ، هو المسيرة الوحيدة للامرئي . أما النباتات والحيوانات والبشر ، فهي عتبات السلم التي يخنفها الإله ليأطأها خلال صعوده .

الضريق الصاعد شاق ورهيب ولانهائي . وفي هذه الهجمة سينتصر الإله ، هل سينتصر ؟ هل يوجد نصر ؟ هل توجد هزيمة ؟ إن التلف سيصيب جسدنا ، وسيعود الى التراب ، لكن ما الذي سيؤول اليه ذلك الذي يتعداه ؟

كل هذه المخاوف تتراجع ، لأن كافة الآمال وحالات اليأس تختفي في دوامة الإله النولبية الشرهة .

ان 'إله يضحك ، ويرثي ، ويقتل ، ويشعل فينا النار ، ثم يتركنا في منتصف الضريق نحو الإحتراق .

وهكذا يتمكنني الفرح وأنا أشعر ببداية العالم ونهايته تخترقان صدغي بلمح البصر .

في لحظة كلمح البرق أتأمل بذر ونبات وإزهار وإثمار وإندثار كل شجرة وحيوان وانسان ونجم واله .

ان الارض بأكملها بذرة زرعت في تجاويف عقلي ، وكل السنوات التي لا تحصى والتي قضتها تكافح داخل رحم المادة المظلم لكي تتفتح وتثمر ، تعبرها في رأسي متفجرة كوهج برقي عابر .

أدأ لو نلحظ هذا البرق ونمسك به للحظة ثم ننظمه في قول انساني .

فلنعضد تلك اللحظة التي يكمن فيها كل شيء . يكمن فيها ما مضى وما سيأتي ، قبل ان تضعي الدوامة العشقية للغة وتغدو تعبيراً سكونياً .

كل كلمة تشبه قارب نجاة ، نرقص حولها مسكونين بالقشعريرة ونحن ندرت ان إله هو ذلك المقيم الرهيب بداخلها .

منهّما تعيش النشوة فانك لن تستطيع ان تحوّلها الى قول ، ولكن رغم ذلك عيب ن تناضل لكي تحوّلها الى قول . حارب بالاساطير وبالأمثال وبالاستعارات . حارب بالكلمات النشاعة ، والكلمات النادرة ، بالصيحات وبخوافي ، لكي تمنح النشوة لهما ودماً وتجسدها .

ان إله يفعل ذلك ، هو النشواني الأعظم ، الذي يتكلّم ، يكافح كي يتكلّم ببحار ونيران ، بأجنحة وأوان ، بأظافر وقرون . كي يستطيع القبض على نشوته .

وأنا أيضا ، كغيري من المخلوقات الحيّة ، أجد نفسي في مركز الدوّامة الكونيّة . أنا عين الانهار الشاسعة وكل ما حولي يرقص ، ثم تضيق الدورة فجأة فتدقق السموات والارض باندفاع شديد في أعماق قلبي الحمراء .

يتبسّني الإله برهبة ومحبة ، فليس له أمل غيري ، ثم يقول : « ذلك النشواني الذي يلد كل شيء ، ويفرح بكل شيء ، ويمحو كل شيء . هو ابني » .

الممارسة:

أ: العلاقة بين الإنسان والإله.

الدرع والشكل الأكثر قوة للنظرية ، هو الممارسة .
الممارسة ليست ان ترى فحسب كيف تقفز الشرارة من جيل الى آخر ،
وانما ان تقفز وتحترق معها .

الممارسة هي النبوة الكبرى للخلاص ، وهي الوسيلة الوحيدة التي تستطيع
الاجابة على أسئلة القلب .

فداخل ابعاد العقل المعقدة الكثيرة الإلتواء تجد الممارسة أقصر الطرق .
انها لاتجد وانما تنشئ أقصر الطرق ، وهي تقاطع يمنة ويسرة مقاومة المنطق
والمادة .

لماذا فاضلت خلف الظواهر لاصطياد اللامرني ؟ لماذا كل هذه المسيرة
الحربية ونعشقية عبر جسدك ، وعبر السلالة ، وعبر الإنسان والحيوان
والنبات ؟ لماذا يجري نزواج نسري خلف هذه النضالات الشاقة ، والإحتضان
الكامل والوصل الباخوسي* وسط النور وتحت أجنحة الظلام ؟

لقد كافحت لتصل لي حيث بدأت . الى النقطة الحالية الغامضة ، والنايضة
لوجودك انراهن بعيون جديدة . وبمذاق وشم ولمس جديد . بعقل جديد .

ان واجبنا الإنساني العميق لا يتلخص في ان نوضح أو نضيء ايقاع الإله .
وانما في الخضوع نه قدر ما نستطيع . ايقاع حياتنا الصغيرة . وعمرتنا
القصير .

* باخوس هو إله الخمر والسجوة في ديانة يونانية قديمة .

مكّن فقط ننجح نحن غير الخالدين في ان ننجز أمراً خالداً . ذلك بذات
تعاون مع من هو خالد .

وهكذا ننتصر على التفاصيل وعلى الخطيئة المهلكة ، كما ننتصر على
محدودية عقولنا ، ونحوّل عبودية المادة الترابية التي مُنحت لنا لاستخدمها في
حياتنا . الى حرية .

في كل هذا وبعيداً عنه ، يندفع كل البشر ، وكافة الشعوب ، وكل النباتات
وحيوانات ، والآلهة والشياطين كجيش جرّار نحو الأعالي ، منجذبين بنفْسٍ
يتعصى على الإدراك ، ويصعب الفكّك منه .

نناضل من أجل أن نجعل هذا النَّفس مرتبياً ، ولكي نمنحه وجهاً ، ولنعبأه
في كلمات واستعارات ، وأفكار وتعويدات . لكي لا يضيع متناً .

لكن الاحرف الاربعة والعشرين* التي نكتب بها لا تَسْغُه . وما كل هذه
نكلمات وإستعارات والافكار والتعاويد ، سوى قناع جديد يخفي الهاوية .

ولكن بهذا وحده ، أي بتحديد اللا محدود ، نستطيع داخل الدورة
الإنسانية الحديثة التكوين أن نعمل . ماذا يعني ان نعمل ؟ أن نملاً هذه
الدورة برغبات ومخاوف ومناشط ، وأن تتوسع حتى نبغ الحدود . وألاً تعود
الحدود تسعنا . وان تتشقق وتتحطّم . وهكذا نفعل فعلنا فنزيد الجوهر
ونوسّعه .

لذلك فان عودتنا الى الخواهر ثانية بعد اتصالنا بالجوهر ، سيكون لها قيمة
هائلة .

نقد شاهدنا الدورة العليا لقوى الدوّامة اللولبية ، وهي الدوّامة التي اطلقنا
عليها اسم الإله . كان يمكننا ان نعطيها أي اسم آخر من بين أسماء عدة مثل :
الهاوية ، السّر ، الظلام المطلق ، النور المطلق ، المادة ، الروح ، الأمل
الأخير ، اليأس الأخير ، الصمت .

لكننا أسميناها إله . لأن هذا الاسم وحده ضل يصطخب في اعماق

* احرف لغة يونانية

أحشائنا منذ دهور سحيقة . ان تلك الزلزلة تعتبر ضرورية لكي نتحسس الجوهر
الرهيب بأجسادنا بعيداً عن المنطق .

علينا أن ندرك ونميز بجلاء في خضم الدورة اللولبية للألوهية القوس الناري
الصغير لعصرنا . وعلى هذا تقوس المشتعل اللامرئي نستطيع ان ندرك بعمق
وسرية اندفاعة الدورة كلها . وان نتقدم بانسجام مع الكون ، فيتصاعد حماسنا
ونحارب .

وهكذا فإن نشاطاتنا الراهنة إذ تلتحق بإندفاعة الكون بوعي ، تمنجو من
خطر الموت معنا .

انها لا تتبدد في تحديقة باطنية رأكدة لندورة الخالدة . ولا تحتقر الضرورات
اليومية المتدسة .

لئنا نتحني في جدولها الدموي الضيق وتعمل باصرار على موضع صغير ،
زماتي ومكاني . وهو موضع زماني ومكاني ، لانه ينتحق بالاندفاعة الإلهية
لندورة الخالدة .

لا يهمني ما قدمته عصور أخرى . وشعوب أخرى من الوجوه الى الجوهر
المتسامي الاطراف الذي لاوجه له . لقد ملأته بفضائل انسانية ، وعطايا
وعقوبات وبيقينيات . لقد أعطت للمخاوف وجهاً ، وأخضعت انفوضى لإيقاع
ما ، ووجدت تبريراً أسمى للعيش والعمل . لقد أدت واجبها .

أما نحن فقد تجاوزنا الآن هذه الإحتياجات ، ومزقنا قناع الهاوية هذا . ان
إلها لم يعد يسعه ذلك القناع القديم .

نقد إمتلأ قلبنا بمعاناة جديدة ، وبإشعاع وصمت جديدين . لقد توخس
السر واتسع الإله .

ان القوى المظنمة ، هي الأخرى تتصاعد وتوسع رقعتها ، وكل الجزيرة
الإنسانية تتحرك .

فنتلنح على قلوبنا ونحدق دون وجل في الهاوية ، ونحاول ان نشكل مرة
أخرى من لحمنا ودمنا لوجه الجديد والعصري لإلها .

ن .لها ليس فكرة تجريدية أو ضرورة منطقية أو بناء منسجماً هدلاً من
فأفكر ولتصورات .

نه ليس محايداً لا تشوبه شائبة . وليس ذكراً ولا أنثى ، وليس خلاصة
تركيب لا رائحة له من صنع عقولنا .

نه رجل وإمرأة ، زائل وخالد ، روح وروث . يلد وينفخ ويقتل . انه
عشق وانموت معاً ، يولد مرة أخرى ويقتل ، يرقص على الارض الفسيحة خارج
حدود المنطق الذي لا يتسع لمتناقضات .

إنهي ليس كلي القوة ، انه يكافح ويواجه الخطر في كل لحظة ، يرتجف
ويترنح عبر المخلوقات كلها ويصرخ ، يتعرض للهزيمة بلا انقطاع ، ثم ينهض
ممتلئاً باندم والتراب ليبدأ كفاحه من جديد .

انه مشخن بالجراح . عيناه مليتان بالخوف والإصرار . صدغاه محضمتان ،
وفكاه مهشمتان ، لكنه يأبى الاستسلام ، بل يتسلق بالأرجل والأيدي ، عاضاً
على شفتيه ، وهو يتقدم الى أمام دون تراجع .

إنهي ليس كلي الضيبة ، انه مليء بالقسوة والعداثة المتوحشة . انه يميز
الأفضل دون رحمة . لا تسيطر عليه مشاعر الشفقة ولا يكثرث بالناس
والحيوانات ، ولا بالفضائل والأفكار ، اذ انه يحبها جميعاً لبرهة ثم يحطمها
ويتقدم .

انه قوة تتسع لكل شيء . قوة تلد كل شيء . تلد الأشياء جميعاً وتحبها ،
ثم تمحوها . ولو قلنا : ان الإله ريح عشقية تحطم الاجساد لكي تعبر ،
ونستعيد في ذاكرتنا كيف انه يمحو الافراد دون شفقة ، وان العشق يفعل فعله
وسط الدماء والدموع ، حينها نستطيع ان نلمح عن قرب وجهه اترهب .

إنهي ليس حكيماً مطلق الحكمة ، اذ أن عقله بكثرة خيط من النور
والضلام ، وهو يناضل لكي يبسطها في تيه الجسد .

يترنح ، يبحث ، يتحسس ذات اليمين ، يتراجع الى الورا ، يستدير
يساراً ، يستنشق الهواء ، يتوتر قلقاً على شفير الهاوية ، يذهب بعيداً . مثقلاً

وباحثاً عبر ملايين القرون . وأخيراً يشعر بأن العتمة الضمنية حول عقله قد غمرها الضوء .

أمام رأسه الثقيل الكالج السواد ، وبكفاح يجلب عن الوصف يبدأ في خلق العيون ليرى والأذان لسمع .

إلهي يناضل بلا أدنى يقين . هل سينتصر ؟ هل سيهزم ؟ لا شيء يقينياً في الكون . انه يراهن على ثلاثين ، وفي كل لحظة ينبغ بقدره كاملاً . يتشبث بالأجساد تدفة . إذ ليس له من ستر سواها . ينادي مستغيثاً ، فيعلن حالة من النور في أرجاء الكون .

من واجب حين نسمع النداء ان نهرع للمسير تحت أنويته ، وان نحارب معه ، وأن نتجو أو نضيع معه .

ان إلهه في خطر ، فهو ليس القوى المطلق لكي نعقد أيدينا ، وتفرج ، آمين في النصر الأكيد . إنه ليس الطيب المطلق ، لكي يملأنا الأمل والثقة بأنه سيرثي حالتنا وسينقذنا .

ان إلهه يتعرض الى الخطر على كل مساحة جسدنا الحاضرة . إنه لن يجد الى نجاة سبباً ما لم نحاول انقاذه بكفاحنا ، كما لا يمكننا انقاذ أنفسنا اذا لم نتحقق نجاته .

نحن وإياه كل واحد من الدودة العمياء في أعماق المحيط ، الى ساحة المجرة اللانهائية . واحد هو الذي يكافح ويتعرض للخطر . انه ذاتنا . وفي صدرنا الترابي الصغير ثمة واحد فقط يناضل ويتعرض للخطر... انه الكون .

يجب ان نحس بأننا لا نتقدم من وحدة إلهية الى الوحدة الإلهية نفسها . فنحن لا نسير من فوضى الى فوضى أخرى . ولا من ضوء الى ضوء آخر ، ولا من ظلام الى ظلام آخر ، لأنه اذا كان هذا سببنا ، فما قيمة حياتنا هذه ، بل وما قيمة الحياة كلها ؟

لكننا نسير من فوضى كلية القدرة . ومن هاوية سرمدية غنيضة من الضوء والظلام . ونكافح جميعاً : نباتات وحيوانات وبشر وأفكاراً في ممر البرهة

صغيرة العابرة لحياتنا الفردية ، لكي نضبط بداخلنا اي قاع الفوضى وسبي
هوية . ونصنع داخل أجسادنا أكبر قدر من الظلام فنحيله ضوءاً .

إن لا نناضل من أجل أنفسنا ، ولا من أجل عرقنا ، ولا من أجل
الإنسانية . إننا لا نناضل من أجل الأرض ، ولا من أجل الأفكار ، لأن كل ذلك لا
يعود كونه درجات مؤقتة وعزيزة من سلم الإله الذي يصعد ، وهي درجات
تحصم حال أن يراها إله أثناء صعوده .

في حياتنا التي تمرُّ قصيرة كلمح البرق نحس بالإله كلّه يطانا ، ثم ندرك
فجأة لو تملكنا رغبة هائلة وننظم كل قوى الأرض المرئية واللامرئية لندفعها الى
أعلى . لو أننا نناضل مجتمعين ونفضل دائماً جنوداً ساهرين فنربما تمكنا من
نقذ الكون .

ليس الإله هو الذي سينقذنا ، وإنما نحن الذين سننقذه . . محاربين
ومبدعين ومحوّلين المادة الى روح .

نكن نضالنا كلّه قد يذهب هدراً إذا ما تقاعسنا ، ونو أدركنا الخوف ، أو
تمكنا الذعر ، فإن الكون كلّه سيصبح في خطر .

ما الحياة الأ تطوُّع عسكري للإله . نتحرك فيها حاملين صليتنا ، شننا ذلك
أم أبنينا ، لا لنحضر القبر المقدس ، وإنما لنحضر الإله المدفون داخل المادة
وداخل ارواحنا .

إن القبر المقدس هو كل جسد وكل روح ، والقبر المقدس هو بذرة القمح
فلنحضرها . القبر المقدس هو العقل الذي يحترق فيه الإله وهو يصارع الموت ،
فلنهرع ننجده .

إن الإله يعطي إشارة المعركة ، فاندفع أنا الى الهجوم مرتجفاً .
وسيان اذا ما انسحبت معتزلاً المعركة ، أو حاربت ببسالة فأنني سأبقى
دائماً في أتونها .

إذا انسحبت معتزلاً سيصير موتي عاقراً . وسيضيع مع جسدي وستبعثر
روحي أدراج الرياح . وإذا حاربت ببسالة فسأعبط الى أعماق الأرض كشمرة

مليئة باليدور . نَفْسِي سيهجر جسدي وسيتركه يفسد ، ثم سينظّم أجسادا
جديدة ويستمر في المعركة .

إن صلاتي ليست ندية شحاذ ، ولا اعترافات عاشق ، ولا حسابات
متواضعة لتاجر مقايضة صغير : وهبتك فاعطني .

إن صلاتي هي تقرير من جندي الى قائده : هذا ما فعلته اليوم... هكذا
حاربت لكي أُنقذ قطاعي الخاص طوال المعركة ، هذه هي المَعَوَّقات التي
واجهتها... وهكذا أفكر استعدادا لمعركة الغد .

أنا وإلهي فارسان نسير تحت وهج الشمس الحارقة ، أو تحت رذاذ
المطر ، نتجاذب أطراف الحديث شاحبين ، جوعى ، وعنيدين .

أُناديه « يا قاتدي » فيدير رأسه نحوي . وحين أنحظ معاناته تنتابني
القشعريرة .

قاسية هي محبتنا ونحن نجلس على المائدة نفسها ، ونعاقر النبيذ نفسه
في حانة الأرض المنخفضة هذه .

وحتى يحين موعد تبادل الانخاب ، تقعقع سيوف ، وتنفجر حالات من
الكراهية ومن العشق . نسكر برؤى مذابح تصعد الى مآقينا ، وتتهديم مدن
داخل عقولنا ، ونحن مشخون بالجراح ، نتحب ألماً ، ونهب بلاطاً عظيماً .

ب) علاقة الانسان بالانسان:

من أعماق الظلمة يتصاعد خط مشتمل مشيراً في اتجاه اللامرني .
ماهو واجبنا ؟ أن نصعد النخط الدامي معه .

فكل ما يندفع متصاعداً الى أعلى ويدعم الإله في صعوده يعتبر خيراً ، وكل
ما ينحدر بثقله هابطاً الى أسفل ومعيقاً الإله في صعوده يعتبر شراً .

كل الفضائل والشورور تأخذ قيمة جديدة ، تتحرر من أسر اللحظة
وتتراب ، وتؤكد وجودها المطلق من خلال الانسان وقبله وبعده بصورة أبدية .
جوهر أخلاقنا ليس هو خلاص الانسان ، الذي يتغير ضمن الزمان
والمكان ، وانما خلاص الإله الذي يظل . هو نفسه دائماً ، ذلك الإيقاع
السرمدى المحارب من أجل الحرية ، عبر التدفق المتنوع للتجسيدات
والمغامرات الإنسانية .

نحن البشر تعساء . عديمو القلب . ضئيون . عديميون . لكن في داخلنا
يكمن جوهر أسمى منا يدفعنا بلا رحمة نحو الاعالي .

من داخل هذا الطين الإنساني تتدفق أغاني الهية ، وأفكار عظيمة ، وحالات
عشق جارفة ، واندفاع يقظ وغامض بلا بداية وبلا نهاية ، وبلا هدف ، بل
ووراء كل هدف .

ان الإنسانية مثل كتلة من الطين ، وكتلة الطين هي كل واحد منا .

ماهو واجبنا ؟ ان نناضل من اجل ان تترعرع زهرة صغيرة على سماء
جسدنا وعقلنا .

حارب من خلال الأشياء . حارب من خلال الجسد ، حارب عبر الجوع
وعبر الخوف ، حارب عبر الخشية وعبر الخشية لكي تخلق إنها .

كيف يبدأ الضوء من نجمة ثم يصب في العتمة الخالدة ويسير في مسيرة
أبدية ؟

فالنجمة تموت لكن الضوء لا يموت .

ناضل من خلال النقاء المؤقت للقوى المتناقضة ، الذي يشكّل وجودك
انت . لكي تبدع أقصى ما يستطيعه الفاني في هذا العالم... ان تبدع صيحة .

ان هذه الصيحة تترك للارض الجسد الذي انجبته ، وتتقدم في مسيرتها
وهي تعمل بدأ .

عشق جارفُ يعبر الكون ، انه كالأثير : أقوى من الفولاذ وأرق من

النسيم .

انه يلتحم ويعبر كل شيء ، يذهب وينعق ، لا يخلد للراحة على المواقع
لذفة . ولا يستعبده الجسد الحبيب . انه عشقٌ على أهبة الاستعداد للقتال ،
يرقب البشر ، وهم يتحركون وينهدون كالأمواج ، من وراء كتفي الحبيب ،
يرقب الحيوانات والنباتات ، وهي تلتحم ثم تموت . يراقب الإله وهو يتعرض
لخطر . ثم يستقيث منادياً :

« نَقْذني » .

لعشق!! هل لنا أن نطلق اسماً آخر غير العشق على هذه الإندفاع ، التي
حين تصوف ببصرها على المادة ، تسحرها ، وتبدي رغبتها في أن تطبع مظهرها
الذاتي عليها . تثمين الجسد وتلتحم بذلك الصيحة العشقية المعقدة هي الأخرى
به . ولينجبا ابناً ويضعها ، ثم يصيرا خالدين عبر الإبن .

انها تقتحم الروح وتظهر رغبتها في أن تتوحد معها . والأ توجد انا
وأنت . تعصف على بني البشر وتعبّر عن رغبتها ، وهي تحضّم الجسد والعقل .
في ان تخط كل الانفاس فتغدو ريحاً عاتية وتصيب الأرض بالهياج .

في تلكحظات الحاسمة يدفع العشق البشر بقوة ليبتحم بعضهم بالبعض

الأحر . ينتحِم العدو والصديق . والطيب والخبيث . انه ريح أعى منهم .
ومتقّة عن رغباتهم وأفعالهم .

نه نفس الإله . إنه تنفّسه على الارض . يهبط على البشر كيفما يشاء .
في هيئة رقص أو عشق أو جوع أو دين أو مذبحه ودون ان يستأذنا .

دخل سفينة الارض ، وفي تلك اللحظات الحاسمة يحاول الإله جاهداً ان
يعجن مادة الاجساد والعقول ، وان يقذف بكل تلك العجينة داخل دوامته اللولبية
نفسية ، وان يعطيها وجهاً... وجهه هو .

لا يتهكك الغنيان ، ولا يتسرب اليأس الى احشائه الترابية المظلمة . يعمل
ويتقدّم . يلتمهم لحمهم ، يتشبث بالمعدة وبالقلب ، بالذكر وبالعقل .

انه ليس رب الأسرة الطيب ، لانه لا يقسم الخبز بالتساوي بين أبنائه .
فانظم والقسوة واللهفة والجوع هي إناث الخيل الاربعة التي تقود مركبته على
رضنا المضطربة هذه .

ان الإله لا يُصنَع أبداً من السعادة وترفاهية والعظمة ، وانما من الخجل
وجوع والدموع .

في كل لحظة حاسمة تخاطر جماعة من البشر . وهي تتقدم في الطبيعة ،
معيدة حقيقة الإله ، وهي تحارب حاملة على عاتقها كل مسؤولية المعركة .

ذات زمان مضى ، قام الكهنة والمنوك ، والنبلاء والمتمددون . بإنشاء
حضارات . وحرروا الألوهية .

أما إله هذا العصر فإنه عامل متوحش من الإجهاد ومن الغضب ومن
الجوع ، تفوح منه روائح الدخان والنيبذ والعرق ، يلعن الآلهة . ويجوع وينجب
اطفالاً ، وينتابه الأرق فلا يجد الى النوم سبيلاً . يضلق صيحاته ويتوعد فيتردّد
صداها في الوديان والجبال .

تقد تغيّرت ترواح . إننا نتنفس ربيعاً ثقيلاً ومليئاً بالبدور . انصيحات
تعنو . من الذي يصيح ؟ نحن الذين نصيح . نحن البشر . الاحياء والاموات ،
والذين لم يولدوا بعد ، نكن الخوف يدهمنا فجأة فنلوذ بالصمت .

إذا تركن للنسيان بسبب الكسل والعادة والجبن ، لكن الصيحة تمزق
أحشاءنا مرة أخرى وكأنها نسر .

الصيحة لاتأتي من الخارج ، انها لاتأتي من بعيد . كي يمكننا ان
نتحاشاها . انها تسكن في قلوبنا وتطلق نداءاتها .

«أحرق بيتك» هكذا ينادي الاله ، «أنا آتٍ . كل من له بيت لن يحظى
بأن أحلّ صيفاً عليه» .

«أحرق أفكارك . هدمّ تأملاتك! كل من عثر على الحل لن يعثر عني» .

«لني أحب الجوعى والقلتين والمسترددين . فهؤلاء يفكرون دائماً في
الجوع والتمرد . وفي الطريق اللانهائي . في أنا» .

«أنا آتٍ ، دع زوجتك ، ودع إبنائك ، ودع أفكارك ، واتبعني . أنا
تمشرد الأعظم» .

«أتبعني! تقدّم فوق الفرح والحزن . فوق السلام والعدالة والفضيلة!

تقدّم! حطّم هذه الاصنام ، انها لا تسعني! وتحصّم انت أيضاً لكي استطيع
عبور» .

ناراً! هذا هو واجبنا الأعظم . في هذا العصر . ووسط كل هذه الفوضى

العديمة الاخلاق والأمل .

حارب عديمي الايمان! ان عديمي الايمان هم الهانئون والمتخمون

ونعاقرون .

ان كراهيتنا لاتقبل التسامح . لانها تحتوي على ماهو أصلح وأعمق من

مشاعر الإحسان مما يفتح الطريق واسعاً أمام الحب .

إننا نكره ولا تتكيف . نحن غير عادلين بل قساة ومليؤون بالتوتر

وبالإيمان ، نضب المستحيل كالعشاق .

فتأتي النار لتطهر الارض! ولتفتح أكثر لهاويات رعباً بين الخير والشر .

لينتشر الظلم وليحلّ الجوع فيمزق أحشاءنا . هذا هو خلاصنا الوحيد ولا

خلاص غيره .

عصرنا هذا هو لحظة حاسمة وعنيفة . انه عالم يتحطم وآخر له يومه بعد .
عصرنا ليس عصرأ للتوازن . فلا مكان لفضائل كالتُّبُل والتسامح ونسداد
ووجوب ان تجد لها فيه أرض خصبة .

بنا نعيش الإندفاع الزهيمية ، نشب على الأعداء ، وعلى الأصدقاء الذين
يتخنون وراءنا ، يتهددنا الخطر في أتون انفوضى ، نشرف على الغرق . لا
تسعد فضائل القديمة ، ولا الآمال القديمة ، لا تسعد النظريات وانمارسات
قديمة .

ان رياح الدمار تهب . هذا هو نفْس الإله في عصرنا هذا . فلنذهب معه .
ان رياح الدمار هي إنجذابة الرقص الأولى لدؤمة الخلق . تهب على العقول
ومسن ، تهدم الأفكار والمنازل ، تمر عبر الصحارى وتصيح « تهبأوا... الحرب
قادمة... الحرب قادمة! » .

هذا هو عصرنا ، خيراً كان أم شراً ، جميلاً كان أم قبيحاً ، غنياً كان أم
فقيراً . نحن لم نختره ، هذا هو عصرنا ، انه الهواء الذي تنفّسه ، والطين الذي
مُتِح لنا ، هو الخبز ، وهو النار . هو الروح !
فلنتقبل الأمر بشجاعة . ان قسمتنا ونصيبنا هو ان الحرب . فلنشذ الاحزمة
على خصورتنا جيداً ، ولنسلح أجسادنا وقلوبنا وعقولنا! ولنأخذ مواقعنا في
ميدان المعركة!

ان الحرب هي السيد الشرعي لعصرنا .
وحده المحارب ، هو الإنسان الكامل والشريف في عصرنا ، لأنه هو وحده
المؤمن بالنفْس الأعظم لزماننا في حالات دماره وكرهيته ورغبته ، ممثلاً
للمشيئة المعاصرة لإلهنا .
ان تطابقنا هذا مع الكون هو الذي ينبج انفضيلتين العظيمتين : المسؤولية
والشفعية .

علينا واجب معاونة الإله . الذي يتفجر غضباً . لكي يتحرر بداخلنا وبداخل
الإنسان ، ودخل الجموع التي تعيش في العتمة . يجب علينا أن نكون متأهبين

في كل المحطات ، لكي نقدم حياتنا في سبيله . فالحياة ليست هدفاً لذاتها وإنما هي الأخرى أداة مثلها مثل الموت ، والجمال ، والفضيلة . أداة من ؟ أداة الإنة الذي يحارب من أجل الحرية .

نحن كلنا كينونة واحدة . جوهر واحد مهتد . لو ان روحاً في أقاصي العالم الذي ينحدر هابطاً سقطت . فإنها تحطم أثناء سقوطها روحنا أيضاً . لو ان عقلاً في أقاصي العالم يفرق في البلاءه فانه يملأ أصدغانا بالظلام .

لو ان شخصاً واحداً فقط ، يناضل في أقاصي الأرض والسما . لو ان واحداً فقط كهذا ضاع . فإن مسؤولية ضياعه تقع علينا . نوضاع فنحن أيضاً سنضيع .

هذا هو الأمر الذي يجعل خلاص الكون خلاصنا أيضاً . ان تضامننا مع البشر الآخرين ليس ترفاً لحنان القلب ، وإنما هو شكل عميق من أشكال الحماية الذاتية ، واستجابة لضرورة حقيقية... ضرورة تأمين سلامة من يحمي ظهرت في الجيش وانت تحارب معه .

ان اخلاقنا تتصاعد الى آفاق أكثر سمواً . فنحن كلنا جيش يحارب ، لكننا لانعلم علم اليقين ما اذا كنا سنتصر أم سنهزم ؟

هل يوجد خلاص ؟ هل يوجد هدف لنعمل من أجله لكي نجد خلاصا لانفسنا ؟

أم انه لا يوجد خلاص ، اذ لا يوجد هدف . وكل شيء بلا جدوى ، وكل عطائنا الجماعي لا قيمة له ؟

لا هذا ولا ذاك . ان إلهنا ليس مطلق القدرة ، كما انه ليس مطلق الطيبة ، وليس وثقاً في نصره أو هزيمته .

جوهر إلهنا غامض ينضج في كل مرة دفعة واحدة ، ربما يرجح احتمال النصر بكل فعل شجاع نقوم به . ربما تكون كل هذه النضالات من أجل الخلاص والنصر أدنى من طبيعة الألوهية .

ومهما كانت الحقيقة فاننا نحارب بلا يقين . وفضيلتنا هي ألا نكون واثقين من مردود يحظى باحترام عميق .

كل نوصايا تبعث من جديد . نحن لا نرى ولا نسمع كما كنا نرى و نسمع سابقاً ، ولا نكره أو نحب كما كنا سابقاً . هكذا تتجدد عذرية الأرض . يكون للخبز والماء والمرأة مذاق جديد ، ويكون للفعل قيمة جديدة لا حدود لها .

كل ما يحمل سموً مؤقتاً كالجمال والمعرفة ، والأمل والنضال الإقتصادي ، وأعباء الحياة اليومية تبدو وكأنها هموم لاهي لها . في كل مكان نقشعرو ونحن نذكر ان النفس العظيم المكبل بالأغلال يناضل من أجل الحرية . نكلل طريقه الخاص الذي يقوده للخلاص . البعض من خلال الفضيلة ، وبعض الآخر من خلال الشر .

لو أن طريقك الذي يقودك الى الخلاص يمر عبر المرض والنفاق والعار ، فإن من واجبك ان تغوص في أعماق المرض والنفاق والعار ، حتى تنتصر عليها ، ودون ذلك لن يكون لك خلاص .

ولو ان طريقك الذي يقودك الى الخلاص هو طريق الفضيلة والفرح والحقيقة . فان من واجبك ان تغوص عميقاً في الفضيلة والفرح والحقيقة ، لكي تنتصر عليها وتتركها خلفك ، إذ دون ذلك لن يكون لك خلاص .

إننا لا نحارب شهواتنا المظلمة بفضيلة رزينة وشاحبة ومحايذة تسموعليها ، وانما بشهوات أخرى أقوى منها وأشد بأساً .

نترك بابنا مفتوحاً للخطينة ، لانغلاق آذاننا كي لا نسمع الحوريات ، ولا نقيد أنفسنا من الخوف الى سارية فكرة عظيمة ، كما اننا لا نهجر السفينة ، ونختفي لنسترق السمع للحوريات ونقبلهن ، وانما نتابع مسيرتنا ، ونختلف الحوريات وتأخذهن الى السفينة لكي يسافرن معنا . هذا هو تصوفنا الجديد .

الإله يصيح في قلبي : « أنقذني »

الإله ينادي البشر والحيوانات والنباتات والجمادات : « أنقذوني » .

اصغ الى قلبك واسمعه . حطم جسدك واستيقظ . نحن كلنا جسد واحد .

أحبب الإنسان لانه هو أنت نفسك .

أحبب الحيوانات والنباتات لانك كنت كذلك ، وهي الآن تتبعك مؤمنة ومتعاونة وخادمة لك .

أحبب جسدك ، فبجسدك وحده تستطيع أن تكافح على هذه الارض ، وان تحول المادة الى روح .

أحبب عناصر المادة فالإله يتشبت بها وهو يحارب ، فحارب معه .

عليك ان تموت كل يوم ، وان تولد كل يوم ، وان ترفض ما عندك كل يوم .

فالمفضيلة الكبرى ليست في ان تكون حراً ، وإنما في ان تناضل من أجل

الحرية .

لا تتواضع وتتساءل «هل سننتصر؟ هل سنهزم؟» بل حارب .

وفي كل لحظة من حياتك أجعل من مغامرة العالم مغامرتك .

هذه هي أيها الرفاق وصاياتنا العشر الجديدة .

ج (علاقة الإنسان بالطبيعة:

ان هذا العالم بكل هذه السلسلة اللانهائية المتنوعة من الظواهر ليس وهماً ، ولا مسرحية متعددة الالوان لمرآة عقلنا العاكسة ، ولا واقعاً محضاً يعيش ويتشكل بحرية مستقلاً عن قوى عقلنا .

انه ليس انرداء المضيء الذي يرتديه الجسد الغامض لإلهنا ، ولا نصف لجدار المرئي المعتم بين الإله والسر .

كل هذا العالم الذي نراه ونسمعه ويتحسس ، هو امتاح للحواس الإنسانية ، وكله خليط إلهي لنقوتين الكونيتين العظيمتين .

احدى القوى تهبط وهي تصمخ في ان تبغثر وان تتجمد وان تموت . اما القوة الأخرى فانها تصعد على أمل ان تبلغ الحرية والخنود .

هذان الجيشان ، الجيش المظلم والجيش المضيء ، جيش الحياة وجيش الموت ، ابدأ يتصادمان والآثار المرئية لهذا الصدام هي الاشياء والنباتات والحيوانات والبشر .

ان القوى المتصارعة تتصادم ابدأ ، تتعانق وتتعارك ، تنتصر وتهزم ، تتصالح ثم تبدأ في الصراع من جديد على امتداد الكون كله . من المرئي في حركة قطرة ماء الى مجرة النجوم اللانهائية .

إن أدنى انواع الحشرات ، وأصغر الافكار ، هي معسكر كامل للإله ، حيث يتهاى فيها جميعاً ويستعد لمعركة حاسمة .

في أقل جزيئات الارض والسماء أهمية أسمع إلهي ينادي : « النجدة! » .
كل شيء هو مجرد بيضة في داخلها تكمن بذرة الإله القلقة التي تعمل
ساهرة ، وتصطف داخل البيضة وخارجها قوى لاحصر لها لتدافع عنها .
بنور العقل ، وبشعلة القلب ، أحطم كل السجون التي تحبس الإله ، أبحث
وأحاول وأدق على تحصينات المادة لأفتح فيها كوة ، ولأنشي عبر هذه
التحصينات بوابة الخروج البطولي لإلهنا .

حارب... لاحق الظواهر بصبر وأناة تَصَوِّعُها في قوانين ، وبذلك ستفتح
طرقاً تمر على النهاية . وتساعد الروح على أن تجد مداها .

ضع نظام عقنك في النظام الإنسيابي للعالم . أحفر خطة المعركة على النهاية
بوضوح . ناضل مع القوى الطبيعية ، ودعها تخضع للاقتران بهدف أعلى منها . حرر
الروح التي تكفح داخلها وتشتاق للإلتحام بالروح التي تناضل في أحشائك .

حينما يُسخر الإنسان ، وهو يناضل داخل الهاوية ، مجموعة من الظواهر
قوانين عقله ، ويستدع لهذه القوانين قولاً جديراً بها ، فإن العالم يتنفس ،
وتتنظم الاصوات ، وتنضج ملامح المستقبل ، وتحرر كل الأرقام المظلمة التي
لا تحصى ، وتدعن وتستسلم للنوعية الغامضة .

إننا نتعجل ، بمساعدة عقلنا ، في ارغام المادة على السير معنا ، ونغير
اتجاه القوى المتجهة الى أسفل ، واتجاه التيار ، ونحول العبودية الى حرية .
إننا ونحن نخضع العالم المرثي من حولنا ، لانحرر الإله فقط ، وإنما نصنعه
أيضاً .

يصيح الإله « افتح عينك . أريد ان أرى! أهدف السمع . أريد أن اسمع!
تقدّم الى الأمام . أنت رأسي! » .

ان الحجر ينجو حين نرفعه من الضيق ونضعه في بناء منزل أو حين نُنقش
عليه ملامح الروح .

البذرة تنجو... ولكن ماذا تعني نجاتها ؟

تعني : أن يتحرر الإله الذي بداخلها ، فتزهر . ثم تثمر ، ثم تعود مرة

تغري في تراب . فلتنساعد البذرة على النجاة .

كبر نسان محيطه انخاص الذي يضم مايخصه من اشياء وأشجار . من
حيوانات وبشر وأفكار ، وهو يتحمل واجب انقاذ هذا المحيط ، عليه وحده دور
غيره تقع المسؤولية ، واذا لم يتم انقاذ المحيط ، فلا خلاص لصاحبه .

عليه مسؤولية إنجاز المهام الكبيرة المناطة به قبل موته ، ولن يجد للنجاة
سبيلاً إن لم ينجزها ، لأن روحه مبعثرة وأسيره هذه الاشياء ، التي يضمها
محيطه الخاص : أسيرة الاشجار والحيوانات والبشر والأفكار . ولن ينجو بروحه
حتى ينجز المهمات الكبيرة .

لو أنك عامل ، فأفلق الارض وهينها لكي تثمر . ان البذور تصيح داخل
تربة ، والإله يصيح داخل البذور ، حرره... انه ينتظر خلاصه على يدك ، ثمّة
حق ينتظر خلاصه على يدك ، وثمّة آلة تنتظر ان تبث فيها الروح . انك لن
تجد الى النجاة سبيلاً حتى تنقذ كل كذلك .

لو انك محارب... أبعد عنك الإحساس بالرافة ، لان الأسى لا يدخل ضمن
واجباتك . أقتل العدو بلا رحمة ، واستمع الى الإله يصيح من داخل جسد العدو :
« أقتل هذا الجسد فإنه يعيقني . أقتنه لكي أستطيع العبور » .

لو انك حكيم ، حارب داخل الجمجمة . أقتل الافكار وأخلق أفكاراً
جديدة . ان الإله يختبئ داخل الجسد . حطّم الفكرة وحرره . أمنحه فكرة
أرحب كي يقيم فيها .

لو انك امرأة ، اتجه صوب الحب وأختر بجهد وتبصّر مضمّن من بين كل
بني البشر والد أبنائك . نلت أنت التي تختارين وانما ذلك انلامتناهي ، الذي
لا يتحطّم ولا يعرف الرحمة ، ذلك الإله الذكورى الذي بداخلك . أنجزى واجبك
كاملاً . أنجزى واجبك المحتشد بالمرارة والعشق والشجاعة . قدمي جسدك
كله ، جسدك المحتشد بالدماء والحليب .

قولي : هذا الذي أحمله في حجري وأرضعه من حليبي سينقذ الإله ،
فلأعطينه ، دمي كلّه وحليبي .

روح الانسان شعنة متوهجة ، طائر يقفز من غصن الى غصن ، ومن رأس الى رأس ، صائحا « لا أستطيع ان أستقر . لن أبلغ حد الاحتراق ولو بنفت فلا أحد يستطيع إطفائي! »

فجأة يصير الكون كله شجرة من نار ، وبين الدخان والنار أقب مشتعلاً على قمة نهب ، أقبض على ثمرة النار ، أعني النور ، ثمرة صافية ورطبة وهادئة .
ومن القمة الشاهقة أهدق في الخط الأحمر الذي تصاعد الى أعلى . مرتجفاً ودامياً وفسفورياً ، وهو يزحف داخل التجاويف المبتلة لعقني كحشرة تمسكها لعشق .

ان السلالة والإنسانية والأرض ، والنظرية والممارسة والإله ، مهى سوى أطياف من تراب وعقل ، تصلح للقلوب البسيطة التي يدركها الخوف ، تصح لارواح التي تتلحح بالرياح وتعتقد انها تتوالد .

من أين نأتي ؟ والى أين نذهب ؟ ما معنى هذه الحياة ؟ هكذا تصرخ القلوب وتتساءل الرؤوس وهي تفرع على فوهة الهاوية .

تحركت كتلة نار لتجيب . حتماً سيأتي يوم تطهر فيه النيران الأرض ، وحتماً سيأتي يوم تقضي فيه النيران على الأرض . هذه هي القيامة الثانية .

الروح نسان ناري يلحق ويصارع ، يشعل النار في كتلة من العنبر حنكة الظلمة . وذات يوم سيصير العالم كله حريقاً .

النار هي القناع الأول والأخير لإلهي . ونحن نبكي ونرقص بين اندرين العظيمتين .

أفكارنا وأجسادنا تتلأأ وتتألق . أقف هادئاً بين النارين . أقول وقوى
عقلي ساكنة وسط لزوجة : ما أقصر الزمان ، وما أضيق المكان بين النارين .
وما أشد بظء يقاع تحياة . إني لا أجد زماناً ، ولا أجد مكاناً ، لكي أرقصاً
على عجل .

فجأة يصير يقاع الحياة دواراً ، ويتأشى الزمن ، وتدخل اللحظة في
الدائمة فتصير بدأ ، وكل موضع سوء كان حشرة أم نجمة أم فكرة يصير
رقصاً .

لقد كان سجناً فتحطم السجن ، وتحزرت القوى الرهيبه التي كانت
بداخله ، ونه يعد للموضع أي وجود .

هذه المرتبة العليا من التمرن الروحي تسمى السكينة ، ليس لأن
مضمونها هو بنوع أقصى درجات اليأس تطرفاً ، أو أقصى درجات الفرح والأمر
رقياً واستحالة على الوصف ، وليس لأنها أقصى درجات المعرفة ، التي ترفع عن
مخاطبة أقصى درجات الجهل العاجزة عن الحديث .

السكينة تعني أن كل من قضى فترة تطوعه على مستوى المهام الكبرى
سيبلغ القمة القصوى نمحاولة ، بعيداً عن كل مهمة ، حيث لم يعد يناضل أو
يصيح وإنما ينضج كاملاً بصمت وصميمية ، متوحداً بدأ مع الكون . لقد
اندمج بالهاوية وتصالح معها كما تتصالح بذرة الرجل مع أحشاء المرأة .
صارت الهاوية زوجته التي ينشغل بها ، يفتح ويأكل أحشاءها ويغير
دمها . يضحك ويبكي ، يصعد ويهبط معها ولا يتركها .

كيف الوصول إلى أحشاء الهاوية لتجعلها تثمر ؟ ليس من السهل بنوع
الإجابة على ذلك ، لأنها لا تستسلم لغة ، ولا تنصاع للقوانين ، لكل شخص
خلاصه الخاص الذي يبلغه بحرية مطلقة .

فكما لا توجد طريقة للتعننم لا يوجد مخنص ليفتح الضريق ، ولا يوجد
ضريق ليُفتح .

فكل من يرتفع فوق مستوى هامته ، يستطيع أن يعتق من عقبه الصغير

مسي -تساؤلات ، وان يقف شامخاً بلا وجل وسط السكون عميق منذ
وإغيب ، صاعداً بلا توقف من قمة إلى قمة ، مدركاً ان الإرتفاع النهائية
يعني وهو معلق على الهاوية هذه التعويذة السحرية المفعمة بالفخر :
ومن بيانه واحد . حام للحمى ، ثنائي الميلاد ، مدجج بالسلاح ، تسدي
معداة . عظيم القدرة . لا كَلِّي القدرة ، محارب على الحدود القصوى . قد
ومبرطور كل القوى المضيئة . المرئية منها والمستترة .
ومن بالأقنعة المؤقتة التي لاتحصى ، والتي أتخذها الإله عبر القرون .
وتبين خلف التيار المنساب بلا انقطاع ، وحدة لا تنضم غيرها .
أومن بكفاحه الشاق والمُضني . الذي يطوِّع المادة ويجعلها تتمر كنيع
يهب الحياة نباتات وحيوانات وبشراً .
أومن بقلب الإنسان ، تلك التقاة الترابية ، حيث يناضل حامي الحمى ليل
نهار ضد الموت .
«النجدة...النجدة» هو نداؤك يا سيدي . أسمع بداخلي كما يسمعه
الأسلاف والذين لم يولدوا بعد ، وكل الأجناس بل الأرض كلها برهة وفرح .
طوبى لكل من يسمع النداء فيهب ليخلصك يا سيدي وهو يقول : «أنا
وأنت وحدنا لنا وجود» .
طوبى لكل من ساهم في إنقاذك فيتوحد بك يا سيدي وهو يقول :«أنا
وأنت كيان واحد» .
وطوبى ثالثاً لكل من يحمل على كتفيه دون أن ينحني ، ذلك السر العظيم
الامتسامي والرهيب : حتى هذا الواحد لا يوجد وجوداً محضاً .

نيكوس الذي لم يساوم*

بقلم: هيلين كزنتزakis**

زوجي... كان قاسيا كمكتبة

تعرفت على نيكوس عام ١٩٢٤. وكان لقائي الأول به مجرد صدفة غريبة. اذ دعنتني صديقتي ماريكا وشقيقتها كيتي للتعرف عليه. ذلك ان شقيقتين كانتا تعتبرانه شخصا مذهشا. وكانت زوجته السابقة غلاتيا تعيش حيدة مع فيفيري، وأذكر انها اخبرتني حينها «انه لا يوجد شخص في عالم يستطيع - يحكي مثل كزنتزakis، لكنه قاس كمكتبة»، ويومها قلت نفسي - ليس انه سبب واحد يدفعني للتعرف عليه، اذ ما هي فائدتي لكزنتزakis ان كنت في الحادية والعشرين من العمر، ثم اني غير مثقفة ویتیمة. فقد توفي والدي في سن مبكرة، ولم أكمل سوى المرحلة الثانوية، ولم اتجاوزها لأن أروميا - سبب كانوا يرددون «ان اليتامى لا يتعلمون».

خلاصة القول لقد تعرفت على نيكوس خلال إحدى زياراتي حيث - في رحلة الى بانديلي (ضاحية على اطراف مدينة اثينا). (كان صدام حدث -

* عنوان المقال من اختيارنا. وهو في الواقع عنوان الكتاب الذي نُفِثه هيلين عن زوجها بجرس -

** نشر هذا المقال في مجلة «ناخدوروموس» في (سبريد). اليونانية صيف عام ٢٠٠٣. نشره -
بالذكرى السنوية لميلاد زوجي نيكوس كزنتزakis

المساء . ومنذ اللحظة الأولى وقع في غرامي ، في نفس تلك الليلة... ليلة لقائنا
الأول ، وقال لي « لن نفترق أبداً » و « لو اردت الذهاب فلن اتركك تذهبين » .
كان ذلك قبل يوم واحد من عيدي (عيد الاسم عند اليونانيين) .

كنا نتخاطب بصيغة الجمع

في البدء كنت أنظر الى كزنتزاكيس كأستاذ ، ولم يدر في خلدي اطلاقاً
بأنني ساقع في حبه . كان شخصاً ناضجاً بينما لم أكن بلغت سن النضج بعد .
ومنذ ذلك اليوم بدأنا نتخاطب بصيغة الجمع . واستمر ذلك حتى وفاته . لقد
تعودنا على ذلك حتى صارت صيغة الجمع . التي لا يستخدمها الناس في حياتهم
اليومية . صيغة المفرد بالنسبة لنا .

استمرينا على اتخاطب بصيغة الجمع كما بدأنا في بداية تعارفنا . كنت ،
ليتك تعلمون ، أشعر باحترام واعجاب شديدين نحوه . في البداية صرنا
صديقين وانتظرني حتى بلغت مرحلة النضج فاتخذني زوجة له ، لكن صيغة
الجمع بقيت ثابتة في تخاطبنا المشترك . وفي بعض الاحيان كان يبدأ حديثه
بصيغة المفرد وبعد ان يسترسل قليلاً ينفجر ضاحكاً . كانت صيغة المفرد تبدو
لنا غريبة . وفاقدة لحنان ، هكذا اعتدنا على صيغة الجمع .

زوجتي.. رفيقتي

منذ عام ١٩٢٨ صرت أعيش معه كزوجة . لكن زواجنا الطقوسي لم يأت
إلا بعد ١٨ عاماً ، إذ لم يعقد عني طوال تلك المدة ولم يضايقني ذلك اطلاقاً .
لا أستطيع ان أتصور حائناً لو ان والدي كانا على قيد الحياة . بالطبع لم يكن
معقولاً ان اترك بيتي وأذهب لاعيش مع رجل ما . لكن المعجزة حدثت . ان
الأجيال التي تعيش الآن تستطيع ان تفهم مثل هذه الأشياء . ونحن في ذلك
الزمن كان وضعنا يعتبر امراً خارقاً . وهكذا تركت منزلي وذهبت لأعيش معه
ولم يبدر من أي أحد ما يعكّر ذلك . حتى أعمامي الذين ينحدرون من أصول

رستقرأطية ظلوا يستقبلونه بترحاب حين كنا نزرورهم في منازلهم رغم أنهم كانوا ضيقي الأفق . ولم يفلق أي أحد بابه في وجهي بسببه ، بل كانوا يكونون حتراماً خاصاً ، ويعتبرونه شخصاً مختلفاً ، لكن كزنتزاكيس نفسه لم يقدمني لأي شخص بعبارة « هذه صديقتي » وإنما كان يقول لدى تعريفي « هذه رفيقتي... هذه زوجتي » .

في تلك الفترة كان كزنتزاكيس كثير الأسفار ، ولقد رافقته في بداية علاقتنا الى القدس وقد سمح لي وني أمري بالذهاب معه بعد ان اصطحبت معي صديقتين كن السبب ، كما اسلفت ، في تعرفي على كزنتزاكيس . وحينها وجهني نيكوس بالذهاب الى صحيفة « كل يوم » لأحصل منها على بطاقة صحافية ، تساعدني على السفر ، مقابل أن اكتب فيها مشاهداتي في القدس . وحين عدنا إلى اليونان نشرت فعلاً مقالات في الصحيفة المذكورة . كما نشر هو مقالات في صحيفة « القول الحر » .

وحدى في باريس

في عام ١٩٢٦ اعتقدت ان نيكوس سينتدب للعمل في احدى الصحف في باريس ، فذهبت إلى صحيفة « كل يوم » التي وافقت على أن اكون مراسلة لها في باريس مقابل مرتب شهري قدره ثمانمائة فرنك . وهكذا توجهت إلى باريس لكن كزانتزاكيس لم يستضع السفر ، وفضل يكتب لي يومياً على أمل ان أجد له طريقة تساعد على الوصول إلى باريس .

لقد احتفظت بكل الخطابات التي كتبها لي ضوال حياته ، والتي تبلغ الخمسمائة خطاب تقريباً . كان هو أيضاً يحتفظ بخطاباتي إلى أن احرقتها لأنها عديمة الأهمية . وحين توفرت له فرصة السفر إلى باريس لم يكن يملك مالا . وكان يعاني من فقر مدقع ، كما لم يعطوه نقوداً للسفر ، وهكذا لم يأت فبقيت هناك وحدي ، لكنه سافر في فترة لاحقة الى مصر وسيناء مع صديقه الرسام كالموخوا ، أما انا فواصلت تزويد الصحيفة من باريس برسالتين

كل اسبوع ، وحين اعتلت صحتي وعاد نيكوس الى اليونان رجعت انا ايضا .
بعدها سافرنا الى روسيا ، ومن هناك كنت اكتب لصحف فرنسية .
امضينا عدة شهور في روسيا وانتقلنا من موسكو الى بيكوفو ، ثم نزلنا على
طول نهر الفولغا مروراً بجورجيا وارمينيا والقفقاز . ومما سهل سفرنا الى
الروس سمحوا لنا السفر بالقطارات والبواخر مجاناً ، كان ذلك عام ١٩٢٨ .
فاتني هنا أن أقول إن كزنتزاكيس سافر بمفرده الى سيبيريا ، والسبب هو أن
مراقبتنا «بنايت» انفق كل ما كانا جمعا هو وكزنتزاكيس من الاموال بفضل
المقابلات وسيناريوهات الافلام التي اعداها وقاما ببيعها للروس . لقد ارتكب
كزنتزاكيس خطيئة كبرى حين قال لصديقه «يجب ألا يصرف كل من
بطريقته . سأعطيك النقود وأترك لك أمر صرفها» ، لكن صديقه بدأ يسأل
كل من يزورنا «كيف تحتمل مثل هذه الاسنان الشبعة ؟ سأعطيك نقوداً
لتغيير أسنانك» أو «ما هذه النظارات السيئة التي ترتديها ؟ سأعطيك نقوداً
لتشترى غيرها» . وفي أحد الايام فاجأنا قائلاً «لقد نفذت كل النقود ولا
نملك ما يكفي للعشاء» . لقد نفذت كل النقود التي اعتقدنا انها كانت
ستكفينا لزيارة اليابان ايضا . حزن نيكوس لذلك ، لكنه لم يغضب ، غضبت
أنا من نيكوس لأنه لم يتكلم في الأمر . وقلت له «ألا تكلمه:ألا تكلمه!»
فأجابني بهدوء «وما قيمة ذلك . إنني أتكلم حين يكون إصلاح الأمور
ممكناً» . هذه القضية لم تؤثر على الصداقة التي كانت قائمة بين كزنتزاكيس
وبنايت الى ان جاء السبب الكافي لإنهائها ، والسبب هو ان بنايت كان
يمر حينها بأزمة حادة ، حتى انه لم يستطع الكتابة . اما كزنتزاكيس فكان
يكتب المقالات ثم يأتي بنايت ليظهر اعجابه بها ، ويذيلها باسميهما ،
وبعد حين اتضح ان بنايت كان يستبعد اسم كزنتزاكيس من المقالات
وينسبها لنفسه . ولما كان كزنتزاكيس حتى ذلك الحين غير معروف خارج
نطاق اليونان ، فان المقالات لم تنشر أبداً وضاعت وكان هذا السبب كافياً
للقطعة بينهما .

والسبب الأساسي لمغادرتنا روسيا هو أن كزنتزاكيس وصديقه كانا بديا تعاطفا مع أحد الشيوعيين الصاعنين في السن لظنم حاق به من السنطة . ويبدو أنه كان تروتسكيا . أما أنا شخصيا فقد أعجبت كثيرا بموسكو . نقد واصلنا جولتنا وتركنا روسيا الى تشيكوسلوفاكيا ثم الى ألمانيا . وفي بعض الأحيان كان نيكوس يملي عليّ فأكتب ، لكنه كثيرا ما كان يعطي الأصول المكتوبة كلها للناسرين وبقى نحن صفر اليديين .

في أحد الأيام قلت له ان تراجيديا (قسطنطين باليوبولوس) لاتعجبني فمزقتها أمام عيني ، لكنني حين قلت له إن مقدمة الأوديسا لا تعجبني ولا أفهمها أجابني قائلا : «لست على حق... سأتركها كما هي» ولم يمسها بأذي .

حين اعضاني كتاب «تصوف» عام ١٩٢٤ لم أندهرش لدرجة الجنون ، لكنني ما زلت اعتبره المفتاح الأساسي لكل أعماله . لقد كان العمل الأول الذي طلب مني أن اقرأه . حينها لم أكن قد بلغت سن النضج بعد . وكنت أقرأ روايات فيكتور هيجو وغيرها من الروايات الفرنسية .

يبدو انه كان قد تعب من زوجته الأولى غلاتيا وأراد ان يسلك طريقا معاكسا تماما . أتصور أنها كانت أرهقه بمحاولاتها المبهوسة ، وهي تلح عليه المرة تلو الأخرى لكي يصير شيوعيا . ويذهب ليقتل ميكادو ، لكنها هي نفسها لم تكن شيوعية . إنني لا أرى فيها ما يدل على الشيوعية ، فهي سيدة برجوازية طيبة ، ونست أنا التي تقول ذلك وانما شقيقتها هي التي كتبت ذلك . لقد كانت امرأة تقدمية تطالب بالحرية للمرأة ، وقد كتبت موضوعات جميلة عن المرأة .

كانت غلاتيا جميلة وجذابة ، ولا يستطيع احد الجلوس اليها ولو لبرهة قصيرة دون أن يحبها . رغم ما تطلق من شتائم حين تغضب ، لكنها على أي حال لم تستطع العيش مع كزنتزاكيس . كانت دائمة القلق ولم تستوعب ما كان يكتبه كزنتزاكيس . كانت تعتقد ان كل ما يكتبه هو مزيف ، وانه لا

يتقن فن الكتابة!! من الذي لا يعرف الكتابة؟ هل كان على نيكوس كرتزاكيس ان ينتظر غلاتيا لتعلمه الكتابة؟ .

وحين أعيد الآن قراءة أحد كتبها فاني استبعدها من قائمة الكتاب العظام ، ولكن في ذلك العصر كنا نراها عظيمة .

أحبها نيكوس حبا جماً ، لقد ساعدته كثيرا بأن دفعته في اتجاه التقدم . ولم يصبح شيوعيا ، لكننا لا نستطيع ان نتكهن بمصيره حينذاك في هيراكليون (عاصمة جزيرة كريت اليونانية) لو لم تكن غلاتيا معه . كانت غلاتيا ضد الأوضاع السائدة في عصرها ، كانت تدخن وترتدي البنطلون ، وكانت جذابة بصورة تفوق الوصف .

لكن نيكوس لم يكن يميز بين النساء اللواتي عبرن حياته ، أحب من أحب حتى النهاية ، وحفظ جميلها عليه ، هن أيضا أحببته . وغادرن الحياة . واسمه على شفاههن ، لكنه لم يرتبط بهن مرة أخرى . نهاية كل علاقة كانت نهاية أبدية لا يبقى منها سوى الحنان الانساني . أما العلاقات الجنسية فكانت تنقطع نهائيا ، ويبقى نيكوس بعدها سماء صافية . كان زوجا وقياً وكان ذلك شيئا من طبعه . هكذا كان مع غلاتيا ، ومع إيلني لامبروزو الفينسوفة ، وراشيل مينخ الشاعرة ، وإيريس لاتفي المدهشة .

يقولون عنه انه لم يحب النساء بدليل انه قدم خلال كتاباته نماذج سلبية عنهن ، لكن ألم يكتب في «تقرير اني الجريكو» قائلا : «أن كل ما هو خير في حياتي منحتني إياه النساء» .

كانت إيلني لامبروزو قد اشتهرت عليه إنها لن تزور منزلنا إلا في غيابي . فرد عليها «ولن تدخلني منزلنا ابدا إلا اذا كانت هيلين حاضرة» . وهكذا فإنها لم تأت أبدا اني منزلنا . اما كرتزاكيس فكان يقول لي بين حين وآخر «سأذهب لزيارة إيلني» . وكنت أرد عليه «أذهب يا عزيزي» ، لم اكن اشعر بالغيرة تجاه ماضيه ، فهذا شيء يخصه وحده .

لم تفعل أي شيء لمنع أنفسنا من الانجاب . إلا أننا لم نتجب ، ربما

كنت حالتنا الصحية هي السبب ، لكن نيكوس اعترف لي ذات يوم -نه وادس
خف بنتا فانه ما كان ليستطيع ان ينام نوماً هادئاً ، وكان حائه مثل الكريتين
مستخدمين في العمر ، وكان سيسأل «متى عادت ؟» و«الى اين ذهبت ومع
من ؟» ولعجز عن الكتابة لانشغال عقله بها ، كان سينزعج لأسباب أخلاقية .
ويتحول الى كويتي حقيقي . لقد اعترف لي بكل هذه الاشياء التي لا تصدق .

كانت حياتنا مرحلة ، ولم يكن يغضب ابداً . أتذكر انه غضب عني مرة
وحدة ، لكن غضبه لم يدم أكثر من دقيقة واحدة . كان يزعه ان يرتدي
قميصاً لذلك كان يرتدي بدلته على البيجاما عندما نخرج للنزهة . فقلت له
ذات مرة «ماذا سيقول الناس... سيقولون ان هذه المرأة تعنتي بنفسه و
تعنتي بزوجها» ، فرد قائلاً «لقد جلبتي الكدر الى هذه النزهة» . لكنني
واصنت اصراري قائلة «من الآن فصاعداً يجب عليّ أن اراقبك لأرى كيف
ترتدي ملابسك» ، وهكذا عدنا ادراجنا الى البيت . كان الناس يعرفونه
ويحبونه ويحترمونه . كان رزيناً يستحق الحب .

من الذكريات التي لا تنسى أننا قابلنا بيرفيلي ذات يوم في شارع
«استاذيو» في أثينا . كان بيرفيلي يتحدث كل يوم في الاذاعة ضد نيكوس
متهما اياد بموالاته منظمة «ايام» ومناصرة البلغار ، وغير ذلك من التهم . تدفع
بيرفيلي نحو كزنتزاكيس وقال له «يا عزيزي نيكوس لا تصدق ما يقوله في
المذيع . انها الضرورة والحاجة . يجب ان تعلم اني اكن لك كل حب» . ثم
انحنى وقبل كزنتزاكيس الذي لم يغضب منه ابداً . ولو كنت مكانه لقلت لبيرفيلي
«ألا تخجل ايها المسكين إنك مجرد بصقة . ما هذا الذي تقوله الآن!!» .

لم يكن يملك ذاكرة سوء . ذات يوم عثرنا بين حوائجنا على نحت من
الفضة للتائر اليوناني كالموكتروني . وكانت لي رغبة شديدة في أن اعنقه عن
جدار منزلنا . لكن نيكوس قال لي انه يتوي ارساله للمكاتب ميلاس . لدى
الف كتابا عن كالموكتروني . فقلت له «هل سترسله لمن يكييل لك نشيت
المرّة تلو الاخرى!!» فأجاب «كتابه جيد... بل هو كتاب عظيم» .

عشنا فقراء

حين كانت تتناهب الرغبة في الكتابة كان يجلس على مكتبه ، أما في الأسفار فكان يكتب على سريره . لم يكن وجودي يزعجه رغم زلّاتي الكثيرة . أذكر أنني ناديته يوماً من الطابق العلوي قائلة « نيكوس... كيف تُكُتَب كلمة الوراثة؟ » فأجابني على سؤالني ، وبعد قليل ناديت أسأله عن معنى إحدى الكلمات فرفع قلمه إلى أعلى قائلاً : « إلى متى ؟ » فاجبته « إلى الأبد » وأضفت « هل تريد أن أعذ لك قهوة ؟ » فأجاب « نعم » .

لم يغضب يوماً ، ولم يقل لي لقد اضعت تسلسل افكاري . كان يرفع قلمه ويقول « إلى متى ؟ » كان يتمتع باخلاق رفيعة ولم يكن يلقي على عاتقي المشاكل التي تضايقه . مواردنا الاقتصادية كانت محدودة . صحيفة « كل يوم » هي الوحيدة التي انتظمت لبعض الوقت في اعطائه مرتباً شهرياً حين كانت تستكتبه . لقد عشنا فقراء . وصدق كزنتزاكيس في ما يردده أهله الكريتيين من قول وهو : « حين تكون بصحبة رفيق جيد فان الفقر والجوع لا يعنيان شيئاً » .

استغرق بناء منزلنا في جزيرة ايجنه زمناً طويلاً . نقد بنيناه على مراحل ، وساعدتنا الاسفار في ان نقتصد لنكمل بناءه ، اما الطعام فكان يكفيه انقليل من الفواكه .

صار قديسا

حين أُعيد له اعتباره أطلق زفيراً عميقاً وقال « لقد جاء متأخراً ، وهو لا يهمني الآن على الاطلاق » . وكان حينها يعاني من المرض ، اما أنا فقد حلقتُ عالياً من الفرح لأن الكريتيات الجميلات صرن يزرننا . كان يقول لي « لا تصدقيهم يا عزيزتي... انهم لا يدرون ما يقولون » . كان قد تخلى عن المظاهر الخادعة ، واقسم انه صار قديساً خلال سنواته الاخيرة . صار يستمتع

بحساء السمك ، وبالتين الذي يقطفه كل صباح ، وكان يقدر لشمس
وعنب ، لكنه كان يحترق في قرارة نفسه من أجل اكمال اعماله .
أراد ان يعيش اثنتي عشرة سنة أخرى . فلقد ظل مقتنعا بأنه سيعيش
مثل غوته الالمانى اثنين وثمانين عاما ، لكنه مات في الرابعة والسبعين وليس
في الثانية والسبعين كما اشيع . لقد وجدنا خلف لوحة عائلية في المنزل
تاريخ الحقيقي لميلاده والذي هو عام ١٨٨٢ وليس ١٨٨٥ كما كانت
شقيقته تقول .

كيف ضاعت جائزة نوبل ؟

كان يقول لي معلقا على الانتقادات والاساءات التي تصدر عن ميلاس
«دعيه يا عزيزتي يقول ما يريد فلا أحد يهتم به»... إلا أن هذا السلوك
الاخلاقي لم يشفع له امام اعدائه ، فبدلوا جهدهم لحرمانه من جائزة نوبل
للآداب . وقتها كان صاحب صحيفة «الإستية» سقيرا لليونان في ستوكهولم
ومن هناك واصل شن حربته على نيكوس . الجميع كانوا يعلمون أنه يستحق
الجائزة وقد فقدها بصوت واحد . كتب لي البير كامو يقول ان كزنتزاكيس
«يستحق هذه الجائزة مائة مرة أكثر مني» . كتب نيكوس وهو على فراش
الموت خطابا لاليسر كامو يهنئه بنيل الجائزة . وكنت انا من اوانل الذين
كتبوا يهنون الشعارين اليونانيين سيفيريس وإلتيس بعد حصولهما على
جائزة نوبل .

بعد مرور عشر سنوات على وفاته اصدرت كتابي «الذي لايساوم» .
وحتى ذلك الحين لم يكن في استطاعتي أن أمسَ خطباته . لكنني بدأت أولاً
باستنساخها على الآلة الكاتبة لكي لا يضيع منها أي أثر شخصي ، ولكي لا
أرى خط يده . ثم أخذت من الخطابات كل ما يساعطني على إضاءة
كزنتزاكيس الكاتب وترجمته الى اللغة الفرنسية . بعد ذلك اصدرت الكتاب
بالفرنسية ولم أترجمه ليونانية الا بعد عشرين عاما .

هو نفسه طلب مني ان اكتب . قال لي « اُكتبي انت ، سيقولون الكثير من الاكاذيب عن اسطورة كزنتزاكيس التي ستلوكها الألسن . اُكتبي انت لانك تعرفيني » . وكنت ارد عليه « هذا مستحيل... هذا مستحيل » .

ليقولوا ما يشاؤون ، غير ان الحقيقة هي ان كزنتزاكيس كان متدينا تدينا عميقا . بحث عن الاله لكنه لم يقل... ها... قد وجدته . وآمنت به ، انه يؤمن بقوة أعلى منا تحركنا . كان يبحث لاكتشاف حدود دورنا ، وماهية وجودنا على هذه الارض . وكان معنى الاله بالنسبة له هو ان نكون أحسن مما نحن عليه . أنا ايضا أرى أن هنالك قوة بداخلنا تدفنا الى الكمال .

نم انحدر من بيت متدين وكنا نذهب انا ونيكوس الى الكنيسة يوم الجمعة العظيمة «من ايام عيد الفصح» . تعجيني كثيرا خطبة الكنيسة ، وأحب شعائر الاسبوع المقدس لدرجة الجنون ، خصوصا حين يكون هنالك من يجيد التلاوة .

يقونون انه كان شيوخيا ، لكنه في الحقيقة كان معارضا لكل المؤسسات السائدة . كان يريد للانسان ان يتحرر بارادته ، وان ينعشق من أسر المؤسسات الزائفة .

عشت كل هذه السنوات لان ذكره تعضدني . سألونا ذات يوم «هل نكم أبناء ؟» فأجاب « كتي هي ابنائي » .

انني مناضلة وأعضد الحق قدر المستطاع . أود لو استطع النضال من اجل شيلي ومن اجل افريقيا ، هناك حيث يعانون الجوع . لقد احببت اليونان لكنني عانيت الكثير فيها . كان يمكن ان أقدم شيئا ذا قيمة . لقد كان نيكوس يقول لنا «احمدوا الله انكم مرضى ، إذ لو كنتم أقوىاء لأدرتم العالم رأسا على عقب» .

الفهرس

٤	مقدمة المترجم
٥	- مدخل
٥	- الواجب الأول
٥	- الواجب الثاني
٢١	- الواجب الثالث
٢٦	- المسيرة
٢٦	أ - السلم الأول : أنا
٢٦	ب - السلم الثاني : النسالة
٢٦	ج - السلم الثالث : الإنسانية
٢٦	د - السلم الرابع : الأرض
٢٦	- الرؤيا
٢٦	- الممارسة
٢٦	أ - العلاقة بين الإنسان وإلله
٢٦	ب - علاقة الإنسان بالإنسان
٢٦	ج - علاقة الإنسان بالطبيعة
٢٦	- السكينة
٢٦	- نيكوس الذي لم يساوم